محمد حبش

إخاء الأديان

محاولة لبناء إخاء إنساني رصيده الروح والعرفان

دراسة في الأصول المؤسّسة في التراث الإسلامي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

هذا مختصر لكتاب إخاء الأديان

للدكتور محمد حبش

يشتمل على المقدمة والخاتمة والفهرس وبعض المباحث

حيث لا يمكن حالياً نشر الكتاب الكترونياً

الكتاب الأصلي 400 صفحة

المختصر 81 صفحة

وفي آخره بعض الدراسات التي صدرت عن الكتاب في الشهر الأول لصدوره

إخاء الأديان

محاولة لبناء إخاء إنساني رصيده الروح والعرفان

دراسة في الأصول المؤسّسة في التراث الإسلامي

ولله طرائق بعدد أنفاس الخلائق

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله

دين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان

نبي بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء

أمـــة بين الأمم وليس أمـــة فوق الأمم

God is one but his names are many.

Reality is one but its ways are many.

Spirituality is one but religions are many.

Love is one but the hearts are many.

أئمة الإسلام الذين صرحوا بإخاء الأديان، واحترموا إيمان الناس من كل الأمم

المجموعة الأولى	الفلاسفة	قبلوا إخاء الأديان إيماناً بعدل الله وشمول رحمته، وتنزيهاً له عن العبث والظلم	ابن سينا والفارابي والسهروردي والبيروني والكندي وابن رشد وابن باجه وابن طفيل
المجموعة الثانية	الصوفية	قبلوا إخاء الأديان بوصف الله تعالى هو المعبود على سبيل الحقيقة بخلاف ظاهر الحال	الشيخ محيي الدين بن عربي وصدر الدين القونوي وابن سبعين والأمير عبد القادر الجزائري
المجموعة الثالثة		قبلوا إخاء الأديان بوصف الأديان إرادة الله وأمره وجبره، وأتباعها عباد مأمورون	الحلاج والسهروردي وعبد الكريم الجيلي والعفيف التلمساني
المجموعة الرابعة	الإنسانيون	قبلوا إخاء الأديان إيماناً بالخير الإلهي في كل خلقه، ومظهراً للسمو الاجتماعي والحضاري	إخوان الصفا وجلال الدين الرومي والسلطان المغولي أكبر شاه والملك الكامل الأيوبي ومحمد إقبال ومالك بن نبي وروجيه غارودي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وحسن الترابي وجودت سعيد
المجموعة الخامسة	الحقوقيون	قبلوا إخاء الأديان عملاً بمقاصد الشريعة العليا، والتزاماً بالقانون الدولي	اللجان التشريعية والأسرة البرلمانية في (52) دولة إسلامية من أصل (57) دولة إسلامية

وقد أفردنا عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز عن القائمة لأنهما إمامان لكل المسلمين، ولا ينبغي حصرهما في فئة واحدة.

وقد أفردنا في فصل خاص نصوص الكتاب والسنة الداعية إلى إخاء الأديان.

خطة الدراسة

فصل تمهيدي

- أهمية الدراسة
- مصطلح إخاء الأديان
- الدراسات السابقة
- إشكالية البحث
- فرضيات الحل

الفصل الأول: الأصول الشرعية لإخاء الأديان

- الأصول الشرعية لإخاء الأديان
- مبدأ الفطرة
- مبدأ الفترة
- العدالة الإلهية
- عيال الله
- أهم المواقف الفقهية ضد إخاء الأديان

الفصل الثاني: إخاء الأديان في التراث الإسلامي

- إخاء الأديان في أعمال الفقهاء
- إخاء الأديان في أعمال الفلاسفة المسلمين
- إخاء الأديان في المدرسة العرفانية

الفصل الثالث: إخاء الأديان في تراث الأديان

- إخاء الأديان في أدبيات الأديان الإبراهيمية
- إخاء الأديان في ديانات الفيدا
- إخاء الأديان في الأديان الأخرى

الفصل الرابع: إخاء الأديان في كلام الفلاسفة

- مختارات من مواقف الفلاسفة
- شعراء وأدباء عالميون يؤمنون برسول الله

مقدمة

يثير عنوان إخاء الأديان مشاعر متناقضة لدى أتباع الديانات عموماً، وعلى الرغم من القبول النفسي للعنوان، واعتباره من أهداف الدين عموماً، فإنّه يصطدم، بلا شكّ، بنصوص قطعية في معظم الديانات، التي تعتبر الخلاص شأن الديانة الناجية وحدها، وأنّ مسؤولية أبناء الديانة هي دعوة الأديان الأخرى للتخلي عن معتقداتهم والدخول في الديانة الحق، بهدف بلوغ النعيم السماوي الخالد، الجنّة أو الفردوس أو النيرفانا أو الظهور الجديد، وفق ما تكرّسه الأديان من ثقافة وتقاليد.

ومن المدهش أنّ المجتمعات الإنسانية، ومنها معظم الدول الإسلامية، باتت تمارس قدراً كبيراً من الإخاء الديني، في إطار المعاملات والتواصل المجتمعي، وبشكل خاص في الدول الديمقراطية التي باتت قوانينها تفرض سلوكيات كثيرة من قبول الآخر واحترامه ومودته، ويمكن: القول إنّها قد هدّمت حواجز كثيرة من التمييز والاتهام، ولكنّها ترتدّ في لحظة النصّ إلى الحوارات العقيمة التي تجعل من الآخر دوماً شيطاناً ضالاً مصيره الشقاء والخذلان، تضيق به رحمة الخالق، وينال أشدَّ العقاب على ضلاله وإصراره، وهذا مدلول النصوص الظاهرة في الأديان الإبراهيمية بشكل خاص، ومن المؤكد أنّ هذا التفكير موجود بشكل أقل في الديانات الفيدية (الهندوسية والبوذية) ولكنّه غير موجود في الأديان الفولوكلورية الصينية واليابانية.

ولا شك في أنّ المسألة لا تتوقف عند الجانب اللاهوتي، بل هو أيسر المسائل، فهي تتعداه باستمرار إلى الشقاق الاجتماعي، وتبادل الريب والاتهام، وتحقير الذات الإنسانية، فمن كان عند الخالق حقيراً مرذولاً لن يكون عند عباده في حال أفضل، وسيتنامى شعور الكراهية بشكل مطّرد من الإيديولوجيا إلى السوسيولوجيا، ومن ثم فإنّنا لن نكون أبداً أمام مجتمع مستقر أو متراحم، بل سنجد أنفسنا أمام ركام من البغضاء قد تزيّنه بعض الممارسات، ولكنّه يرتدّ في لحظة الاصطفاف إلى جحيم الكراهية ونار البغضاء.

لقد أمضى الإنسان قروناً طويلة ينظر بعين الريبة والحذر لأخيه الإنسان ويبادله اتهاماً بعد آخر، وانطبعت قصّة قابيل وهابيل مصدر إلهام للصراع الأبدي في الأرض، ووجدت الصراعات والحروب المدمّرة تبريراً أخلاقياً، وتمّ تكريس عديد المجرمين أبطالاً ملهمين في التاريخ، وبات المثاليون اليوتوبيون مساكين حالمين، يرثي لهم الواقع الصاخب الذي ترسمه سياسات التسابق على الثروة والقوّة والنفوذ.

ومن المؤلم أنّ هذا الصراع انعكس أيضاً على جدل أتباع الأديان الذي بدا تسخيفاً وتشكيكاً، ثم صار تحقيراً ولعناً وتكفيراً، ثم تحوّل إلى حروب ضارية، ووجدت هذه الحروب، باستمرار، تبريراً أخلاقياً على الرغم ممّا فيها من ممارسات التوحّش البهيمية، ووجدت للأسف من بات يطلق عليها الحروب المقدّسة، ويكرّس أبطالها ومجرميها رموز التضحية والفداء، ويطالب بتكرار أعمالهم المجيدة، بل إنّ العقود الأخيرة قدّمت نماذج تطبيقيّة مرعبة أذهلت العالم كلّه.

وتسعى هذه الدراسة إلى معالجة هذه المسألة وفق قراءة جديدة للنصوص الدينيّة، والتوفيق بين الديني والاجتماعي والفلسفي، وتعمد إلى استقراء النصوص الدينية الأساسية التي تتبنّى فكرة ضلال الآخر وخسرانه، وتحاول بناء وعي جديد قائم على ثقافة احترام الآخر اعتقاداً وديانة ومذهباً، وتجتهد أن تلتمس أجمل ما في الأديان، وتتبنّى تشجيع الديانات على الإخاء والتراحم فيما بينها، ونزع أسباب التمييز والكراهية.

وتتجه هذه الدراسة إلى أفق آخر حيث تبحر في الجوانب المشرقة من الاعتقاد الديني لدى كلّ ديانة وطائفة، وتهدف إلى بسط الأعذار لدى المخالفين لفهم روح الطقس الذي تمارسه هذه الديانات، وبيان أنّها تتجه إلى أهداف نبيلة.

وهكذا فإنّ هذه الدراسة تحاول أن تقدّم للمكتبة العربية رؤية مختلفة لجدل الديانات، حيث تتخيّر من النبوّات والفلسفة والحكمة رائع المحاولات التي انطلقت من إيمان الإنسان بالإنسان، وترصد أرق ما امتلكه الإنسان من مشاعر وأعمق ما نظر إليه بعين القداسة، لبناء عالم جديد يتأسس على المحبّة والعرفان.

وتتأسس الفكرة على أنّ هناك مكاناً يظهر أجود ما في الإنسان، ويكشف عن الجانب النبيل من إنسانيته، وهو في الغالب في قدسه الروحي الذي تحمله الأديان، تأسيساً على الحكمة والإرادة والنبل في مقاصد الخالق العظيم، وإيماناً بالإنسان الذي مارس تقديس هذه القيم بوعيه الجمعي، ممّا يؤكد وجود الجانب النبيل في تلك القيم المستقرة جيلاً بعد جيل، وأمّة بعد أمّة.

إخاء الأديان واللادينيين

لا يهدف هذا الكتاب إلى تكريس قطيعة معرفية ومجتمعية مع اللادينيّين، فهدف الدراسة في النهاية هو الإخاء الإنساني، والغاية الإنسان وليست الأديان، وإنّما كرّسنا الحديث عن إخاء الأديان لمعنيَيْن اثنيْن:

الأول: أنّ الأديان لا تزال تشكّل الوعي الجمعي لغالبية سكان الأرض، كما سنشرحه بالأرقام، وهي مسؤولة أخلاقياً عن نشر المحبّة ومواجهة الكراهية.

الثاني: أنّ ثقافة الكراهية والتدابر تنشأ في الغالب من مجتمعات الأديان، وتُبنى على أساس ديني، وبات من الواجب مواجهة هذه الخطايا باعتماد هدي النبوات، وإظهار الجانب الإيجابي والإنساني من ثقافة الأديان.

ومن المؤكد أنّ للإنسان ـ بغض النظر عن أي انتماء ديني ـ مساحة في أعماقه للتأمل والروح. وقد نجح الفلاسفة في إيقاظ هذه المشاعر النبيلة عبر حديثهم عن الإشراق والفيض والتأمل، كما نجحت الموسيقا والشعر في إحياء هذه الروح النقية في الإنسان، وباتت هذه المشاعر رصيداً مشتركاً من الصفاء والطهر

بين سائر الأبرار في هذا الكوكب، وأصبحت هذه القيم ظهيراً للقيم الدينيّة في دعم الإخاء الإنساني، وهي شريك طبيعي لكلّ جهود إخاء الديانات.

إخاء الأديان في الوعي الإسلامي:

وتولي هذه الدراسة اهتماماً مباشراً في التأسيس لفكرة إخاء الأديان في الوعي الإسلامي خصوصاً، ومواجهة السائد في تفكير الرواة من وجوب البغض في الله، وافتراض الصراع بين الأديان صراعاً وجودياً، لا يحتمل أي صيغة وفاقية، وأنّ إرادة الله قاضية أن تتصارع الأديان والإيديولوجيات إلى النهاية وأنّ البقاء للأقوى ومصير الآخرين الاندثار.

ويجب القول: إنّ ثقافة الكراهية لم تقف عند حدود المختلف في الدين، بل دخلت أيضاً إلى المختلف في المذهب، واتخذت شكلاً أشد ضراوة وعنفاً، ويمكن القول: إنّ أكثر من عشرة حروب حقيقية في الشرق الأوسط قامت في العقود القريبة على أساس طائفي، أو كان البعد المذهبي جزءاً رئيساً في إيقاظ نوازع الحرب وتبرير الكراهية.

وتمضي عقيدة احتكار الخلاص إلى الغاية في نصّ مشهور: افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي ثلاثة وسبعين فرقة كلّها في النار إلاّ واحدة[1]. وعلى الرغم من الجهود التأويلية الكثيرة التي قدّمها الفقهاء، وكذلك الجهود النقدية التي قدّمها الرواة، ظلت هذه الروايات أهم دوافع الإقصاء والكراهية، ونشأت تيارات كثيرة تتبنّى البغض في الله بين التيارات المنقسمة، سُنّة وشيعة وصوفية وسلفيّة وظاهرية ومؤوّلة وإسلاميّين وعلمانيّين.

وربّما كان التعبير الأكثر دقة في ثقافة الكراهية التي يلقّنها التعليم التقليدي هي ما رُوي في حديث نُسب للبخاري بأنّ الله يقول لآدم يوم القيامة: «يا آدم أخرج بعث النار! فيقول: ما بعث النار؟ فيقول: من كلّ ألف تسعمئة وتسع وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنّة!»[2].

وبات التساؤل مطروحاً: هل الأصل في علاقات الأديان الكراهية والعداوة، وهل تعبدنا الله تعالى ببغض المخالفين في الدين، وهل انتمى المولى سبحانه لهذه الأمّة الناجية فبات لا يرى في الأمم كلها إلاّ الجهل والخيبة والضلال، ومنح شفاعته لهذه الأمّة دون سواها، وأسئلة كثيرة باتت تدفع المسلم الملتزم إلى غياهب

[1] رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه، وهو في الترمذي، ج4، ص322.

[2] رواه البخاري ومسلم، وهو في البخاري، ج4، ص138.

الحيرة والضياع، وتكرّس واقعاً مضطرباً يفترض التآمر بين الأنبياء والأمم والآلهة، وأنّ الخير والفضيلة والمحبّة مجرّد أوهام يستخدمها الإكليروس في سيطرته على الإنسان.

هذا القلق وهذه الحيرة دفع بجيل كامل من الشباب إلى أفق حائر مرتاب، وبات يضطرب في وعيه بين اتجاهين اثنين: التنكّر لدينه أو التنكّر لعقله، وبين أن يمضي موغلاً في الماضي ويخرج من الحاضر، أو يعيش الحاضر ويحتقر الماضي، ولا شك في أنّ هذه الخيارات كلّها لا تنمّ عن سلوك سليم ولا تنتج جيلاً منسجماً مع نفسه ومع محيطه.

ويجب الاعتراف أنّه قد تحقق قدر جيّد من الإصلاح على المستوى الاجتماعي، وباتت لقاءات الأديان وتعاون أبنائها وحواراتهم جزءاً من طبيعة التحولات الاجتماعية، ولكن لم يتحقق ما يكفي على المستوى التربوي، وحين نمارس الإحسان في الذين كفروا ومعاملتهم بالودّ والبرّ والقسط كما يشير القرآن الكريم، ولكن نعتقد في الوقت نفسه أنّهم سيُصْلَوْن ناراً وقودها الناس والحجارة كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، فإنّنا لا نريد أن نقول: إننا طيبون ولكن الله غاشم وماكر وماقت، وهو يستدرجهم في الدنيا ليمارس عليهم سادية أبدية، وهي قيم مدمّرة للبنيان الأخلاقي بكل تأكيد، ولا يمكن من وجهة نظري تبريرها إلاّ بتعسف يعصف بالمنطق كله.

ويجب التأكيد أننا لا نقصد في هذه الدراسة الحديث عن اللقاءات البروتوكولية بين أتباع الأديان، وتشجيع التعايش والمودة، وبناء ثقافة المواطنة، فهذه كلها مقاصد نبيلة، وهي تجري باستمرار وعلى مستويات كثيرة، ولكننا نهدف هنا إلى البحث في الجذور، وإلى تصحيح الوعي بعلاقة المسلم بالآخر المختلف على أساس تربوي واعتقادي، وليس وفق الحاجات الاجتماعية والقانونية.

فهل هذه العقائد التي ندرّسها لطلاّبنا في المعاهد الدينية هي حقاً الموقف النهائي من الآخر في الإسلام؟ وهل الآخر كافر لعين لمجرّد أنه يتديّن بدين آخر، أو لا يتديّن أصلاً؟ وهل كُتب على هذا الدين أن يكون في صراع أبدي مع الآخر المختلف؟ ومع المنطق والعدل والعقل؟

أم أنّ هناك موقفاً إنسانياً مختلفاً قدّمته الحضارة الإسلامية عبر أعلامها المرموقين لبناء إخاء إنساني يقدّس الإنسان، ولا يحارب النبوّة، ويتخيّر أجود ما في الدين والحكمة لبناء مجتمع إسلامي متصالح مع نفسه ومع العالم من حوله.

إخاء الأديان في الوعي المسيحي

تستعرض الدراسة موقف الأديان عموماً من مسألة احتكار الحقيقة واحتكار الخلاص، وتستعرض واقع كل دين، على ضوء نصوصه المؤسّسة والممارسات المطبقة، وتركز بشكل خاص على الموقف المسيحي الذي يربط الدينونة بالمخلّص، وبشكل أكثر إثارة بالمذهب والطائفة، ويعالج فيه ما عالجه في الموقف الإسلامي ولكن بشكل أكثر اختصاراً.

وفي الواقع فإنّ القرآن الكريم أشار إلى هذه الممارسات في أربعة مواضع، على أنها أمراض الأمم، وفق ما شرحه جودت سعيد. ومن المؤسف أنّ المسلمين عادوا لممارستها، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، ودخلوا في جحر الضب الذي دخلته الأمم الأولى حين حجرت واسع رحمة الله، واحتكرت الحقيقة والخلاص عن الناس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (البقرة 111).

وكذلك قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (البقرة135).

وقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (البقرة 113).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة 120)

ويمكننا اعتبار هذه الأمراض الأخلاقية أمراضاً شائعة في الأمم، وهي متلازمة مع ثقافة التبشير، حيث يندفع التبشير دوماً بدعوة الناس لطريق الخلاص الوحيد، والحقيقة الوحيدة، وهو ما يستتبع نظرة دونية للأمم، تتناقض مع القيم الأخلاقية التي تبشّر بها الأديان.

وهي الأمراض ذاتها التي تعيشها المجتمعات الإسلامية فيقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان مسلماً، ويقولون: كونوا مسلمين تهتدوا، ويقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان مسلماً، ويقولون: ليست النصارى ولا اليهود ولا أي من هذه الأمم على شيء، ولن يرضى المسلمون عن اليهود ولا النصارى حتى يتبعوا ملّتهم.

وعلينا أن نبذل جهداً خاصاً ليعي المسلم أنّ هذه السياقات ليست نقداً لأمم محدّدة، بل هي نقد لكل أمّة تمارس احتكار الخلاص، والمسلمون بطبيعة الحال مقصودون أيضاً بهذا المعنى، فالعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومن الغريب أن يرى المسلمون هذه الآفة بوضوح في سلوك اليهود والنصارى وأن لا يروا شيئاً منها في سلوك المسلمين.

وتشير الدراسة باهتمام إلى الجهود الكبيرة التي بذلها الإصلاحيّون المسيحيون لمواجهة احتكار الخلاص، ويستعرض بشكل خاص فلاسفة عصر الأنوار، وكذلك فلاسفة الدين الطبيعي والإصلاح الديني، ويرصد التطورات الإيجابية التي تحققت على مستوى المؤسسات المسيحية الرسمية، والتي توّجت بشكل خاص في توقيع وثيقة الأخوّة الإنسانيّة بين البابا وشيخ الأزهر.

هل الأديان مشكلة أم حلّ؟

ولا بد أن نكون واضحين في بداية الدراسة، فإخاء الأديان الذي نسعى إليه غير ممكن في القراءات اللاهوتية السائدة على الأقل على مستوى الديانات السماوية، وبشكل أقل الديانات الدارمية والفولكلورية، حيث يلتزم لاهوت هذه الديانات بشكل صارم برفض الاعتراف بالأديان الأخرى، وفي هذه النقطة فإنّ استحضار مواقف متطرّفة لرجال الدين أمر في غاية السهولة، أولئك الذين يبررون باسم الرب نسف كل جهودنا واعتبارها هرطقة وانحرافاً، ومن عجيب ما واجهت أنّ عدداً من المتشدّدين الإسلاميين باتوا يذكرون بإعجاب مواقف المتشددين في الديانات الأخرى، على الرغم من قسوتها وشدّتها على كلّ مسلم، وذلك باعتبارهم صادقين وصريحين ومنسجمين مع عقائدهم، بخلاف دعاة التقريب والإخاء الذين يتم وصفهم دوماً بالمنافقين المتلوّنين!!

وفي هذا السياق فإنّ الأديان هي جزء من المشكلة وليست جزءاً من الحل، وهذا ما يرثي لنا فيه دوماً التيار العلماني المتشدد الذي يرى أنّ الحل في قطيعة كاملة مع الدين، والاعتراف الصريح بأنّه لم يعد صالحاً للمجتمعات الحديثة وأنّ مكانه دراسات التراث البائد.

ويتعين هنا عدم التعميم، فهذا موقف فريق متشدد من العلمانيين، ولكن التيار الغالب في العلمانية هو تيار يفصل بين الدين والدولة، ولا يرفض وجود الدين وما ينهض به من أدوار نفسية واجتماعية انطلاقاً من ذات الفرد.

وفي الحقيقة فإنّني أعترف بأنّ رجال الدين في كل الأديان هم في الغالب لا ينظرون بودّية لهذه الجهود، ويرتابون فيها لأنّها قائمة على تفكيك التفسير الحرفي للدين، والنهوض بتفسير بمقاصدي سيكون من نتيجته بطبيعة الحال دور أقل لرجال الدين ودور أكبر للعقل وشروط المجتمع، وهو ما يرونه عملية مبرمجة ضد المؤسسات والطقوس والممارسات الشعائرية التي يقودها رجال الدين، وبذلك فإنّه يمكن القول: إنّ رجال

الدين عموماً لن يرحّبوا بمثل هذا الخطاب، وسيمارسون في الغالب دوراً رافضاً للإخاء الديني وربما سيقبلون إلى حد ما نوعاً من الإخاء البروتوكولي المتمثل في اللقاءات الاستعراضية التي يعقبها عادة تقديم المعاذير والتبرير للجمهور، وتأويل ما جرى بأنه لمصلحة الدعوة وتألف الناس لإدخالهم في الدين الحق.

ولكن ما تستهدفه الدراسة هو التيارات التنويرية في هذه الأديان، تلك التي تطالب باستمرار بإصلاح الوعي الديني تجاه الآخر، وتطالب بإحياء الجذور الإنسانية في مقاصد الديانة، وتغيير النظرة تجاه الآخر المختلف دينياً، وتراهن هذه الدراسة على أنّ ما حققه فلاسفة الإصلاح الديني في هذه الأديان ليس قليلاً، وقد بات مؤثراً وفعّالاً، وأصبح محبّباً لدى جمهور عريض من أتباع الديانات، بل لقد بات له ظهير مؤيد من بعض رجال الدين الشجعان، وهذه المقدمات تبعث على الأمل والتفاؤل بأنّ الجيل القادم في الديانات جيل مختلف، وهو مستعد أن يقبل الآخر المختلف دينياً على أساس قيم الإخاء الإنساني وجوهر الرسالات الدينية الداعي إلى المحبة والإخاء.

ومن الضروري أيضاً أن لا يفهم من مقولة إخاء الأديان تبرير الممارسات التي يقوم بها رجال الدين، وقبولها والدفاع عنها، بل الغاية هي احترام وجودهم الاجتماعي وفق القيم التي يعتقدون، أما تبرير الخرافة والجهل فهذا أمر غير مراد قطعاً، ولا شك في أنّ في كل دين ركام من الخرافات والممارسات الجاهلية، وكلّها مسندة بحسب ممارسيها إلى النص المقدس ووصايا النبي الأول، ومن ذلك كثير من ممارسات عبادة البقر والأرواح المختلفة، وتقديس القذارة، ونبذ الحضارة، ومنه في المجتمع الإسلامي شرب بول البعير وضرب الشيش والتطبير وما يكون فيهما من إراقة الدم، وكذلك إنكار دوران الأرض وكرويتها وتسخيف الطب ومنع التداوي، وغير ذلك مما تجده في كل دين. فهذه الممارسات غير مقبولة على الإطلاق، ولا يشرّفنا العمل للإخاء مع تيارات الجهل هذه، بل نستنكرها وندينها ونرفضها بكل ما أوتينا من قوة، ولو ظهرت في أي دين أو نسبت إلى أي كتاب مقدّس.

ولعل بعضهم يقول هو هذا إذاً! وهذا حال الديانات كلها تغمرها الخرافة إلاّ الإسلام، وسيكرّر هذا بطبيعة الحال أتباع كل دين، وهنا نختلف تماماً، بل إنني أجزم أن أكثر من تسعين بالمئة من الممارسات الدينية في العالم، قائمة على برهان الحكمة واحترام العقل، وربط الممارسات بدلالات ذات قيم عليا وغايات محترمة، وذلك على الرغم من الانتشار الكبير لممارسات الخرافة والجهل التي تملأ الإعلام الأخضر، ولا شك في أنّ انتشار الخرافات الكبير ناشئ بسبب طبيعة الإعلام الحديث القائم على الإثارة والانفعال.

وهكذا فإنّ الحوار والإخاء إنّما نتوجه به إلى التيارات العاقلة الحكيمة، التي تحترم العقل والمجتمع، وتناضل ضد الخرافة والجهل، وتمتلك تفسيراً عقلانياً وإنسانياً للممارسات، وتمنح أفقاً كافياً لحرية الإنسان في اختيار اعتقاده، ووجوب ألاّ يكون لهذا الاعتقاد أثر ضار بالآخرين، ونحن نعتقد أنّ هذا التيار أكبر بكثير مما نتصور، وأنّه سمة لازمة لكل المجتمعات الراغبة في قيام حضاري.

والسؤال الآن:

هل تبدو فكرة إخاء الأديان حلماً خيالياً غير واقعي؟ وهل نحن ننفرد فيه ونخرج به عن الجمهور؟ أم أنّ هناك من يؤيّدنا في هذا التوجه؟

وهل لهذه الدعوة ظهير في الشريعة الإسلامية من نصوصها وفقهائها؟

وهل هناك في الطرف الآخر من الأديان من يعبأ بمثل هذه الدعوة، ويرى فيها مبادرة إيجابية للإخاء والتراحم في الأرض؟

وهل تشهد المجتمعات المتحضّرة ونخبها الفكرية إصلاحاً حقيقياً في الإخاء مع الآخر الديني؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه...

أحاول أنّ أقدم مطالب الدراسة وحاجاتها في الجانب الأصولي والفقهي، وسيقوم العزيز سليمان البوطي[3] بالإبحار في منجم العرفان الإسلامي ليتخير لنا رائع المواقف والحكمة من حصاد الأئمة والفلاسفة الكبار، في الإسلام وفي الأديان وفي الفلسفة، وآمل أن نصل معاً إلى قناعة إيجابية تعزّز وعينا بإنسانية حضارتنا الإسلامية، وتفتح آفاقنا لبناء شراكة حضارية مع الأمم قائمة على الثقة والاحترام.

[3] لقد تركت هذه العبارة بحرقة وأسى، فقد كان هذا هو مشروع الدراسة، ولكن العزيز سليمان لقي الله بسبب جائحة «كورونا» مطلع شهر آب/أغسطس (2020م) رحمه الله وعوضّه الجنة، وبات عليّ أن أقوم بدوره الذي كان أقدر منّي عليه.

فصل تمهيدي

- **تعريف الدين**

بات من المؤكد أنّ الديانات صاحبت الإنسان في تاريخه منذ النشأة الأولى، وتؤكد الأديان جميعاً أنّ الدين فطرة الإنسان، وأنّه صاحبه منذ قيامه الأول، فيما تقدم الدراسات الأنثروبولوجية قراءات مختلفة لنشأة الدين، وعلاقته بالغيب والشهود.

وفي تعريف الدين فإنّه يمكننا أن نرصد عدداً من التعاريف:

- التعريف اللاهوتي: اعتقاد وسلوك يقوم على الإيمان بوحي من الغيب سماوي أو أرضي، وتتم عادة إضافة المعاني التي يعتقد فيها المؤمن صواب دينه وبطلان سواه، وفي التعريف الإسلامي الأشهر: الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل[4].
- التعريف الفلسفي: تفسير الطبيعة والماضي والمستقبل عبر رؤية تستند إلى المطلق وتتسامى على معايير العقل، فيما عرّفه برادلي: محاولة لبيان حقيقة الخير الكامل (المطلق) عن طريق الأبعاد الوجودية للإنسان[5].
- التعريف الاجتماعي: كيان اجتماعي يستند إلى توجيه غيبي، ويشتمل على انتماء وممارسة وطقوس، ويمكن اعتبار ذلك اختصاراً لما ذهب إليه إميل دوركايم: الدين مؤسسة اجتماعية، قوامها التفريق بين المقدس والدنيوي، ولها جانب روحي من العقائد والمشاعر الوجدانية وآخر مادي مؤلّف من الطقوس والعادات[6].

وتتجه هذه الدراسة إلى الاهتمام بالمجتمع حيث الدين أقوى غرائز المجتمع، وهو حاضر بقوة في المجتمعات كافة، وبخلاف التصوّرات التي صاحبت عصر الأنوار واشتدت مطلع القرن العشرين، فإنّ الديانات ليست ذاهبة إلى انحسار أو انكماش، بل إنّها تسجّل كل يوم حضوراً جديداً، وتطرح أساليب متجددة كل يوم، وتؤكد الإحصائيات التي تصدر بشكل متتابع عن مراكز الأبحاث أنّ الدين لا يزال يسجل حضوراً

---

[4] التهانوي، محمد علي، كشّاف اصطلاحات الفنون، ج2، ص141.

[5] عبد الهادي عبد السلام، نادية، المثالية المطلقة في الفكر الفلسفي الحديث، نشر جامعة قار يونس، 1998م، ص205.

[6] مجلة الاستغراب، بيروت، عدد 13 لعام 2018م، دراسة للدكتور مصطفى النشار.

اجتماعياً قوياً، وأنّه قادر على التكيّف مع التطور الحضاري، وأنّ تطور العلم لا يتناقض مع الوعي الديني الذي بات قابلاً لتأويلات واسعة تحتمل التعامل مع كلّ جديد.

ويسجّل مركز بيو للإحصاء عام (2020م) أنّ (83%) من سكان العالم ينتمون إلى دين معين، فيما يشير إلى أن (17%) فقط لا ينتمون إلى أي دين، ويؤكد أنّ هذه النسبة مستمرة إلى عام (2050م) على الأقلّ[7].

وقد اعترف القانون الدولي بحق الإنسان في التديّن، وطالب بحماية هذ الحق، ومنع من التعدّي عليه، ونصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على تأكيد هذا الحق في المادة الثانية، كما نصّ في المادة رقم 18 منه على التالي: لكلِّ شخص حقٌّ في حرِّية الفكر والوجدان والدِّين، ويشمل هذا الحقُّ حرِّيته في تغيير دينه أو معتقده، وحرِّيته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبُّد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حدة.

وتقوم الدول الكبرى دوماً بتأسيس هيئات حكومية رسمية لمتابعة الحقوق الدينية للأقليات وحمايتها في الداخل والخارج، وتعتبر ذلك جزءاً من مسؤوليتها الأخلاقية والمجتمعية.

وفي السنوات الأخيرة صدرت أحكام قضائية مباشرة في تجريم الاعتداء على القيم الدينية آخرها قرار المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان في (2018/10/25م) التي اعتبرت تحقير الأديان عملاً إجرامياً لا يمكن تبريره بحرّية التعبير.

كما أقرّت القوانين المحلّية بدور ريادي للدين، ويمكن القول: إنّ (40) بالمئة من دول العالم تنصّ دساتيرها على دين الدولة، كما يمكن القول إنّ خمسة وتسعين بالمئة من دساتير العالم تشير بوضوح إلى وجوب حماية المعتقد، وتوفير حقّ إقامة الشعائر لسائر المقيمين.

وفي تقرير المفوّض الخاص للأمم المتحدة لعام (2016م) بشأن الواقع القانوني في العالم للعلاقة بين الدولة والدين، ينص التقرير على أنّ:

- (81) دولة أعلنت تأييدها لدين محدّد أو أكثر، وتعامله بصفة تفضيلية.
- (102) دولة لم تحدّد ديناً بعينه ديناً للدولة، وتؤكد حيادها بين الأديان وحماية سائر مواطنيها وحقهم في التدين.
- (10) دول لديها نظرة سلبية للدين، ولا ترغب بأي دور له.

[7] انظر موقع بيو للأبحاث المتخصص في دراسات الأديان في الولايات المتحدة https://www.pewresearch.org/

ويجب التأكيد على أننا وإن كنا نشجع بحماس مبادرات رجال الدين في إخاء الأديان، ونعتبره جوهرياً وهاماً، على أنّ الجمهور الذي نستهدفه يتجاوز طبقة المتدينين والتراثيين في الأديان، بل نبحث عن الجمهور العريض لهذه الديانات بغض النظر إن كانوا ملتزمين لاهوتياً بالنصوص والطقوس، أو كانوا يحملون موقفاً نقدياً وشكّياً بهذه الديانات، ولكنهم لا يخرجون ضرورة عن دين الآباء.

إن تصوّر أن الأمة الهندية العظيمة أو الأمة الصينية العظيمة تصدر في وعيها عن رجال الدين الهندوسي أو البوذي، وكذلك تصور أنّ الأوربيّين والأمريكيين يصدرون عن رأي الكنيسة هو تجنّ كبير على الحقيقة، ولا يؤدي الغاية التي نريد، بل إنّه من المؤكد أنّ الشعوب تجاوزت رجال الدين فيها، ولكن يجب التأكيد دوماً أنّ الجمهور الذي لا يعبأ عادة بتراثه الديني يرتدّ في لحظة المواجهة مع الآخر الديني إلى نصوص الكهنوت، وهذا ما يجعل البحث في اللاهوت الديني أمراً ضرورياً لبناء إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

ليس المقصود الأديان بل الإنسان، وإخاء الأديان هو في النهاية إخاء الإنسان، أو هو التعامل إيجابياً مع الهيئة الأكثر ممارسة للقطيعة والإقصاء بين الناس، لتدرك خطأها وتعود إلى الخطاب الإلهي الغامر لسائر الخلق بالمحبّة والعناية، فالخلق كلّهم عيال الله.

- **مصطلح إخاء الأديان**

يستخدم الحوار المشترك في الحقل الديني عدداً من المصطلحات: صراع الأديان، مقارنة الأديان، حوار الأديان، حوار أتباع الأديان، وحدة الأديان، توحيد الأديان، ولكن من المناسب أن نحدّد الفوارق في الاستخدام بين هذه المصطلحات ومعنى اختيارنا لإخاء الأديان.

صراع الأديان:

تمر الأديان، دوماً، خلال تأسيسها بلحظة فارقة توجب تميز الأتباع عن الآخرين، وفي الأديان نصوص كثيرة مثل ما ورد في القرآن الكريم {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزؤون}، ويستلزم هذا الشقاق موقفاً حاداً من التمييز بين الأتباع وغير الأتباع، وتعيش الحركات الأصولية في الأديان كلّها لحظة الصدام هذه وتبني عليها موقفاً مستمراً من العداء والتنازع، بوصفه صراع الحق والباطل، وصراع الخير والشر، وعادة ما يتم تداوله على أنه صراع وجود لا صراع حدود. وفي هذا السبيل وقعت الحروب الضارية بين الأديان، وأشهرها بطبيعة الحال الحروب الصليبية التي استمرت مئتي عام وأنهكت الشرق والغرب، ورسمت حدوداً دموية للعلاقات لم تنته إلا بولادة الدولة الحديثة، وإعلان حقوق الإنسان، ولكنها لا زالت عند شريحة كبيرة من أتباع الأديان أصلاً من أصول العقيدة، ويعبّر عنها في الأصولية الإسلامية

بعقيدة الولاء والبراء، التي تقتضي محبّة المؤمنين، وبغض غيرهم، وهو بغض تعبّدي لا بد من أن يفضي في النهاية إلى مزيد من الفوضى والدماء.

حرب الأديان:

ويمكن نسبة هذا المصطلح للمستشرق برنارد لويس، وهي نزعة تظهر باستمرار في الغرب والشرق وبشكل خاص في منعطفات الصراع والمواجهة، وتغذّيها الأحزاب العنصرية والمتطرفة. وفي هذا السياق يمكن إدراج عدد من الكتاب منهم صموئيل هنتنغتون في كتابه **(صدام الحضارات)**، وفرنسيس فوكوياما في **(نهاية التاريخ)**، ويرى هؤلاء أنّ المواجهة بين الأديان حتمية، وأنّها قد تتخذ صورة حربية وعسكرية مدمّرة، وأنّ الأديان جزء من المشكلة وليست جزءاً من الحلّ، ويمكن القول: إنّ هذه النظرة السلبية توجّه بشكل أساسي ضد الإسلام الذي يحمل عقيدة الجهاد والولاء والبراء.

مقارنة الأديان:

وهو جهد علمي يهدف إلى التعريف بعدد من الأديان في سياق واحد والنظر في تفضيل بعضها على بعض، وقد تم استخدام هذا المصطلح دوماً في سياق صراع الديانات، وتورطت فيه جهود استشراقية عملت على خدمة التبشير والاستعمار، قبل أن تظهر الدراسات الموسوعية المحايدة التي تحدثت بموضوعية وعمق عن اختلاف الأديان وشرحت، بدقة وحياد، عقائد أتباعها.

ومن المؤسف أنني لا أعرف دراسة محايدة بالعربية تتناول بالبحث العلمي لاهوت الأديان وطقوسها في سياق إيجابي بناء، بل تنتهي كتب المقارنة دوماً بإثبات صحة الإسلام وفساد الأديان الأخرى، ومن أشهر الأعمال في ذلك كتب الشهرستاني في **(الملل والنحل)**، وابن حزم في **(الفِصَل في الملل والأهواء والنحل)** و**(تهافت الفلاسفة)** للغزالي وكتب ابن تيمية في الرد على النصارى واليهود، وفي العصر الحديث **(موسوعة مقارنة الأديان)** للدكتور أحمد شلبي، و**(موسوعة الأديان والمذاهب في العالم)**، وسنشير إليها بعد قليل.

حوار الأديان:

يهدف حوار الأديان إلى تبادل المعرفة عن الديانات، ويحمل عادة حمولة تبشيرية بحيث كل محاور يظهر أجود ما في دينه، وينهال على خصمه فيما يعتبره نقصاً وقصوراً في ديانته.

وتندرج في هذا السياق الحوارات الصاخبة للشيخ أحمد ديدات مع الكهنة المسيحيين، وكذلك الواعظ المسلم الهندي الشهير ذاكر نايك، وهي حوارات ذات طابع سلبي على إخاء الأديان، وتؤدي تلقائياً إلى مزيد من الكراهية.

وعلى الرغم من المعنى النقدي في المصطلح فقد شاع استخدامه اليوم على المستوى الرسمي في البلدان الإسلامية، وهناك مؤسسات رسمية قائمة في مصر والمغرب وماليزيا وقطر ولبنان والسعودية وإيران تحت عنوان حوار الأديان، تهدف إلى بناء علاقات إيجابية بين أتباع الأديان، وتحقيق إصلاح اجتماعي من خلال التعارف بين الأديان.

حوار أتباع الأديان:

تفضّل السعودية استخدام هذا المصطلح، وذلك تجاوباً مع مطالب الهيئات الدينية التي تعتبر أنّ الحوار بين الأديان بدعة، وأنّه لا يوجد دين حق إلاّ دين واحد، وأنّ مجرّد الحوار مع الأديان هو اعتراف بلاهوتهم. وهنا يتم استخدام مصطلح حوار أتباع الأديان، ويتم التأكيد أنّ الحوار لا يتناول اللاهوت، وإنّما يتناول المسائل الاجتماعية والقضايا المشتركة كالعفاف والأسرة ووقف الحروب.

وحدة الأديان:

ويختار أصحاب هذا المنهج منهج الأصل الواحد للأديان، فالأديان في أصولها من المصدر نفسه، وعلينا أن نبحث عن المشترك بين هذه الأديان ونؤسس منها قيماً مشتركة وفضائل موحدة. وعادة ما يبحث أصحاب هذا الاتجاه عن الجذور المشتركة لكل الممارسات الدينية، وتشابه ما دعت إليه الأديان في الصلاة والصوم والأخلاق، ومن أشهر من نادى بوحدة الأديان بهذا المعنى الإمام ابن عربي وعبد الكريم الجيلي والإمام ابن الفارض.

توحيد الأديان:

ويهدف هذا التوجه إلى جمع الأديان كلها واستخراج دين جديد يتقبل منها أحسن ما فيها، ويتخلى عن أسباب الخصام والنزاع والصراع، ويبني المستقبل على أساس الوعي بالدين العالمي الإلهي، ويمكن أن ندرج في هذا التفكير أصحاب الدين الطبيعي كما قدّمه ديفيد هيوم وأوغست كونت وجون ديوي وإيرك فروم وجون هيك، ويجب التوكيد على أنّ ما طرحه هؤلاء الفلاسفة لا يعدو أن يكون فلسفة نظرية وليس توليد دين جديد، أما المحاولة المباشرة لإطلاق هذه الفكرة فقد نسبت للسلطان المغولي أكبر شاه الذي كان أبرز من قام بمحاولات حقيقية لبناء دين عالمي إنساني يتوحد فيه المسلمون والهندوس والمسيحيون، وقد سمي فيما بعد (Din I Ilahi)، وسنناقش ذلك في فصل مستقل.

وفي هذه الدراسة قمنا باستخدام مصطلح مختلف، وأرجو أن أقدم محدداته بوضوح:

إخاء الأديان:

ويهدف المصطلح إلى بناء أجود علاقات الأخوّة والمحبة بين أتباع الأديان، بواقعها الحالي، باعتبار أنّ الأديان الحالية هي واقع مجتمعي راسخ، وهي وفق كل الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية تتخذ هيئات ومؤسسات وتقاليد مستقرة وراسخة، وهي تسهم في تشكيل الوعي لدى معظم سكان هذا الكوكب الذي صار قرية عالمية.

ويتبنى مصطلح إخاء الأديان منطق البناء على الإيجابي في علاقات أهل الأديان، والاعتراف بالأديان جميعاً على أنّها جهود نبيلة وعظيمة تهدف لبناء السعادة في الأرض سواء كان مصدرها أرضياً أم سماوياً، وسواء ذكرت في القرآن الكريم أو لم تذكر.

وبناء عليه فإنّ إخاء الأديان لا يفترض حواراً تبشيرياً، ولا يفرض تعديلات على المتحاورين للوصول إلى منطقة وسطى، بل يقبل الجميع كما هم، ويتقبل أنّ وراء كل سلوك ديني هدف نبيل، ويشجّع التيارات الإصلاحية والتجديدية في الأديان كلّها، لتتقبّل فكرة الإخاء الإنساني بغض النظر عن الخلاف في المعتقدات والطقوس، ويؤسّس لبناء الأخوة والمحبّة بين الإنسان والإنسان، ولكم دينكم ولي دين.

وإذا كان هناك اتجاه نستهدفه ونواجهه فهو تيار الإقصاء والاستعلاء وإلغاء الآخرين الذي يمكن أن نجده في كل دين، فلكل أمّة متشدّدوها، ولكل أمة متسامحوها، وغنيّ عن القول أنّ الحلف المأمول هو حلف مع أهل التسامح في الأديان، وسيكون بالضرورة ضد التيارات المتشدّدة فيها.

وحتى نكون أكثر دقة فإنّ إخاء الأديان لا يمكنه أن يكون محايداً في كل ما تطرحه الأديان، بل سيختار الجانب الإيجابي في السلم والحب والرحمة في تراث الديانات، فيما سيواجه ثقافة البغضاء التي تسربت إلى

التراث الديني في ظروف وشروط مختلفة، وسيسعى إلى اكتشاف سفراء الإخاء الإنساني في كل ديانة وسيبني على تجاربهم واختياراتهم وفلسفتهم، كما سيشير بوضوح إلى أعداء الإخاء الإنساني مهما نالوا من رتب القداسة في محيطهم الديني.

وأجد هنا ضرورة للتأكيد مرة أخرى على أنّ إخاء الديانات لا يستهدف إقصاء اللّادينيين، حيث نؤمن بأنّ الأهداف النبيلة في الإخاء موجودة بالفطرة لدى كل إنسان، ونؤمن بأنّ الخلق جميعاً يحملون فطرة النقاء الروحي والطهر النفسي، ولكنّنا نعالج المشكلة مباشرة في حقل الديانات لأنها تشكّل الغالبية الساحقة للوعي الإنساني في العالم من جانب، ومن جانب آخر لأنّ ثقافة الكراهية تجد جذورها في التراث الديني، وعلينا أن نقوم بما نستطيع لنوقظ الجانب الإيجابي الداعي للمحبّة في تراث الأديان وأن نواجه السلبية المدمّرة في التراث نفسه التي أفرزت تاريخياً أشد الحروب مرارة وقسوة.

ويمكن الإشارة إلى الإمام الجليل مولانا جلال الدين الرومي على أنّه أبرز دعاة إخاء الأديان، ونعتبره في الواقع أفضل من عبّر عن هذه الحقيقة، ومارسها ودافع عنها في التاريخ الإسلامي.

- **الدراسات السابقة**

يمكن القول: إن خطاب إخاء الأديان موجود في الواقع في النصوص الدينية في الإنجيل والقرآن الكريم كما سنبين، وهو كذلك موجود في الخطاب التأسيسي للديانات وبشكل خاص الهندوسية والبوذية والسيخية والبهائية، وبسط هذه الأدلة ومناقشتها هو جوهر هذا الكتاب.

وعلينا، بالقدر نفسه، أن نشير إلى أنّ النصوص الدينية طافحة أيضاً برفض دعوات الإخاء، واعتبار الدين صراطاً مستقيماً وحيداً إلى الله والحقيقة، وأنّ أيّ انحراف عنه أو موادة لغيره هو انتهاك لجوهر النص الديني.

ويمكن القول: إنّ الجدل كله سيكون في هذه الدائرة تحديداً، فالنص الديني كله حمّال أوجه ولا زال الناس يختلفون فيه تنزيلاً وتأويلاً، ويبدو أنّ هذا قدَر الأديان إلى الأبد.

من جانب آخر، قدّم علماء الحضارة الإسلامية كثيراً من الدراسات النقدية للأديان، ومن هذه الكتب: **(الملل والنحل)** للشهرستاني، و**(الفِصَل في الملل والأهواء والنحل)** لابن حزم الأندلسي، و**(هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى)** لابن القيّم، وكتب الردود وهي كثيرة ولا تخرج في مجملها عن موقف واحد وهو إثبات حقيقة الإسلام وزيف الأديان الأخرى، ووجوب انتصار الإسلام على الأديان الأخرى، وهي

مشابهة في الأصل والفرع لكتب النصارى في العصور الوسطى التي وُضعتْ لاتهام الإسلام بالهرطقة والفساد والانحراف، وحتمية الصراع بين الديانتين، وانتصار المسيحية على الإسلام.

وفي السياق نفسه ما كتب في العصر الحديث من موسوعات الحوار بين الأديان كما نجدها في موسوعة الدكتور أحمد شلبي **(مقارنة الأديان)**، وكذلك كتب مقارنة الأديان وهي كثيرة، ومنها كتاب **(مقارنة الأديان)** لمحمد أحمد الخطيب، و**(موسوعة الأديان والفرق والمذاهب)** التي أصدرتها هيئة حكومة سعودية بإشراف مانع حمود الجهني، وكذلك كتاب أحمد ديدات الذي يتم توزيعه على النت بعنوان **(خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس)**، وكتاب **(حوار الأديان نشأته وتطوره)** للباحث الأستاذ عبد الحليم آيت، وكتاب **(الحوار بين أتباع الأديان والثقافات)** للدكتور عادل بن علي الشندي، وكتاب **(الحوار بين الأديان أسراره وخفاياه)** للدكتور عبد الودود شلبي، وغيرها كثير، فهي في الواقع تكرّس لغة العصور الوسطى القائمة على إثبات انحراف الآخرين وزيغهم وبطلان معتقداتهم وممارساتهم، وتلتزم عموماً الموقف المشهور عند رجال الدين، وهو التعامل مع حوار الأديان كمنبر للتعريف بالإسلام، والرد على الأديان الأخرى وبيان تهافتها وانقضاء آمادها ونسخها بالشريعة الخاتمة.

أما مواقف إخاء الأديان في التراث الإسلامي فلا نجدها في كتب مستقلة، ولكنّنا سنجد جذوراً علمية وموضوعية لها في أعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وعبد الكريم الجيلي وابن سبعين والعفيف التلمساني وصدر الدين القونوي وشمس تبريز، وأعمال مولانا جلال الدين الرومي، وكذلك ما كتبه ابن سينا والبيروني في دراساتهما في الديانات المقارنة.

أما الدراسات الأوربية في العصور الوسطى فلا تخرج عن نسق سياقاتها في التراث الإسلامي، ولم تصدر عن الأوربيين دراسة جدية في الإخاء بين الإسلام والمسيحية. وقد طبعت العلاقات بين الإسلام والغرب الحروب الصليبية ثم الحروب التركية في أوربا ثم الحروب الاستعمارية، ومن المؤكد أنّ هذه الأجواء الطاحنة لن تخلق فرصاً للحوار الإيجابي البنّاء.

ولكن مع قيام عصر الأنوار ظهرت دراسات نقدية مهمة تناولت التعريف بالدين كقيمة روحية واجتماعية، بعيداً عن روح التبشير والوعظ، وقد كتب هيوم وديكارت وكانط دراسات نقدية مهمّة لأداء الكنيسة، في سلسلة دراسات سندرسها في فصل خاص، قدّمها جان جاك روسو وفولتير وإميل دوركايم وسانتيانا وإمانويل كانط، وتولى جون هيك في النهاية صياغة مشروع التعدد الديني الذي يؤكد وحدة مصادر الأديان وغاياتها وتشابه مفاهيمها في الاعتقاد والسلوك.

وفي المكتبة العربية ظهرت بعض الأعمال المهمة التي تناولت حوار الأديان بإيجابية موضوعية، وقدمت تصورات متعددة لإمكانية بناء إخاء حقيقي بين الأديان، ومما صدر في هذا الشأن:

صدر بالفرنسية كتاب **(تاريخ مقارن للأديان التوحيدية)** للكاتب الجزائري محمد أركون وقد ترجم إلى العربية، وقد التزم فيه حياداً أكاديمياً، وفيه أرّخ للديانات التوحيدية الثلاث، كما صدر عن دار الأهلية كتاب **(الوحدة في الاختلاف)** شارك فيه كل من محمد أبو نمر وأمل خوري وإيميلي ويلتي بالإنكليزية وترجم إلى العربية.

وكتب سليمان مظهر **(قصة الديانات)** في قراءة إيجابية لتجليات الأديان وقيمها الروحية، وتبدو فيه بوضوح الرغبة التوفيقية بين مقاصد الأديان.

وصدر عن المركز الديمقراطي العربي في ألمانيا كتاب **(الفن في حوار الأديان الأزلي)** للكاتب عبد الرحمن جعفر الكناني، وتناول فيه جوانب من الرمزية في الفن للتعبير عن القيم المشتركة بين الأديان بأسلوب فني بعيد عن اللاهوت والسياسة.

كما نشير إلى كتاب مهم صدر عن دار نيوبوك في القاهرة للباحث الأستاذ محمد ثروت وقد قدّم له الدكتور يوسف عامر نائب رئيس جامعة الأزهر بعنوان **(حوار الأديان وأثره على التعايش السلمي)**، تناول فيه حوار الأديان برؤية إيجابية، وتطرق للنموذج الماليزي، وقدم سجلاً تاريخياً لنشاطات حوار الأديان من وثيقة المدينة إلى وثيقة الأخوّة الإنسانية التي وقّعها البابا وشيخ الأزهر في أبو ظبي (2019م).

ونشير إلى كتاب **(المشترك أكثر مما تعتقد)** للكاتب الأمريكي وليم بيكر، وقد ترجمناه للعربية، وكتبتُ مقدّمة مهمّة عليه.

ويمكن اعتبار هذه الدراسات إيجابية في التعامل مع الحوار الديني، ولكنها اقتصرت على الجانب الاجتماعي ولم تمس اللاهوت، فيما يمكن أن نشير إلى دراسات أكثر تقدماً. وفي هذا السياق نشير إلى كتاب **(الصراطات المستقيمة)** للدكتور عبد الكريم سروش، وهي دراسة عميقة تستخدم الأدلة التراثية والتفكير الغربي في إثبات إمكان وجود وئام حقيقي بين الديانات، وأكثر من صراط مستقيم، وأنّ قدر هذا العالم التشارك والتفاهم والتكامل، وتدعو بوضوح إلى اكتشاف المشترك بين الأديان والبناء عليه.

ومن هذه الدراسات ما كتبه بالألمانية الدكتور مهنّد خورشيد عميد كلية الدراسات الإسلامية بجامعة مونستر بعنوان: **(الإسلام رحمة– السمات الأساسية للتحديث الديني)** وفيه يتناول وعياً آخر بالنص الديني قائم على المقاصد الإنسانية، يؤسس لاعتراف كامل بإيمان الآخرين، وقد أثار الكتاب جدلاً في المجتمع الألماني.

ومنها كتاب عبد الجبار الرفاعي: **(الدين والنزعة الإنسانية)**، وهو جزء من ثلاثية كتبها بعنوان **(الدين والظمأ الأنطولوجي)** و**(الدين والاغتراب الميتافيزيقي)**.

- **إشكالية البحث**

يمكن تعيين إشكالية البحث ومناطه في السؤال التالي: هل هناك ضرورة تحتّم ظهور تيار إخاء الأديان؟ وهل هي مصلحة دينية أم مجتمعية؟ وهل يتعين تعزيز الإنسانية بإشراف الأديان أم أنّ ذلك استحالة عقلية وواقعية؟

وهل سيوافق القادة الدينيون في الأديان المختلفة على سعي كهذا؟ أم سيعتبرونه تهديداً للثوابت التي لا تنازل عنها؟

وهل توجد مشروعية فقهية ونصية للبحث في إخاء الأديان؟ وهل سيتقبل المجتمع الإسلامي تحديداً هذه الفكرة في ظل تأييد ساحق لمبدأ نسخ الأديان كلّها بالإسلام، واستحالة وجود هدى في غير الإسلام؟ وما هي نسبة نجاح فرصة كهذه؟ وما هي التحديات؟ وفي النهاية ما الذي يمكن أن نجنيه من طرح هذه الدراسات الجدلية الصاخبة في المجتمع الإسلامي؟

وهل سيوافق التيار العقلاني عموماً على هذا السعي الصاخب وهو يعتقد أنّ الديانات عموماً لا تزال تحمل في مضامينها قدراً هائلاً من التناقض مع العقل، وهل المطلوب عقد التآخي بين هذه الأديان أم الخروج من عباءتها بالكلية والدخول في المستقبل، وترك الجدل في اللاهوت للهيئات المهدّدة بالانقراض؟

وأخيراً هل لهذا المطلب صدى في الأديان الأخرى؟ وهل يشعر الحاملون لهذه الراية بتأييد المؤسسة الدينية أم أنهم في صراع معها إلى الأبد؟

- **فرضيّات الحلّ**

تطرح الدراسة الجواب بالإيجاب عن السؤال الأول. فالضرورة الاجتماعية تفترض حتماً خوض هذا النزال، فلم يعد مقبولاً في عصر القرية العالمية أن تعيش الأديان منفصلة متباعدة، وبات الهمس في الكنائس مسموعاً في المساجد، ولم يعد ممكناً من الجانب المجتمعي الاستمرار في ثقافة الكانتونات الدينية المغلقة، فلم يعد في العالم إغلاق ولا إطباق، وكل فتوى تكفير تتبعها شتائم تحقير، توفّر بالضرورة ظروفاً خطيرة للعنف الكامن، الذي ينتظر فرصة طائشة ليكرر ما ابتلينا به في العقود الأخيرة من نار العنف.

أما التيار العقلاني فهو مدعو لإدراك الأرقام الدقيقة القائمة التي يقدمها علم الإحصاء بعيداً عن العواطف والتمنيات، وبعيداً حتى عن قواعد المنطق، فالدراسات الأنثروبولوجية تكاد تكون متفقة على أنّ العالم مستمر في تشكله الديني، وأنه يعطي أغلبية ساحقة للمنتمين دينياً، وأنّ هذا المشهد مستمر، مهما ارتبط الدين بالغيب والخرافة، والكهانة والعرافة، وإنّ علينا أن ندرك أن الإنسان بطبيعته كائن غير منطقي، تحكمه الغرائز والعواطف أكثر مما يحكمه خطاب العقل الحدي، وإنّ الأنبياء لم يكتبوا فلسفة عميقة ولكنهم عزفوا

على أوتار صحيحة، ولذلك فإنّهم تمكّنوا من قيادة الجماهير ولا زالوا يفعلون وهم في قبورهم، ويقدّم مركز بيو للإحصاء ومركز أردا التابع لجامعة بنسلفانيا رقماً واحداً لنسبة المنتمين للأديان على نسبة اللادينيين، حيث يبلغ التديّن في العالم (83%) مقابل (17%) للموصوفين بأنّهم لا دينيين، وأنّ هذه النسبة مستقرة لخمسين عاماً قادماً على أقل تقدير.

ومن المؤكد أنّنا نمارس ما يمارسه مؤمنون كثيرون في الأديان كلها، وستجد جهودنا سبيلاً للتكامل، وباعتقادي أنّ فرص النجاح قادمة، ولا أشك أنّ هذا اللون من الخطاب الإيجابي بين أتباع الديانات هو المستقبل، وهو السياق التراكمي الذي عوّدتنا عليه الحضارة في نجاحاتها، نقيض السياق الإنكاري الذي تمارسه حركات السقوط في الأمم البائسة.

أما في الجانب الإسلامي تحديداً فهو مسؤولية هذه الدراسة وغايتها، وستقدم الدراسة الأدلة النصية والعقلية والمقاصدية الممكنة لتعزيز هذه الرؤية، ونرجو أن نكون موفقين في عرض ما يكفي لإقناع الجمهور الكريم بمشروعية هذا السعي النبيل وجدواه وفائدته.

ومع أنني لست متفائلاً بفرص النجاح السريعة لمبدأ إخاء الأديان ولكنني أشعر أننا سياق من الأمم، وأنّ الأمم التي حققت نجاحاً حضارياً حققت من ثم تقدماً جيداً نحو إخاء الأديان، فإنّ الفائض الحضاري ينتج فائضاً أخلاقياً، وقناعتي أنّ كل خطوة نخطوها صوب المجتمع المتحضّر الذي تسود فيه العدالة والقانون هي من ثم خطوة نحو إخاء الأديان، وما ترسمه هذا الغاية النبيلة من بناء مجتمع آمن ومستقرّ وسعيد.

وتجدر الإشارة أنّنا حين نقاوم بشدة احتكار الخلاص فليس ذلك بدافع من مسؤوليتنا في تنظيم الدار الآخرة، أو مشاركة الله في الحساب وتحديد منازل الناس فيها، فالحساب بيد الله، والخلاف في شكل الدينونة وتفاصيلها بالغ التعقيد والتفاوت بين الأديان، ومن الحماقة أن ننصب أنفسنا فيها قضاة وجلاّدين، وربما لا تكون لدى الناس قناعة أصلاً بتفاصيل العالم السماوي، ولكن ما نبحث عنه بدقة هو خطاب الكراهية الناشئ أصلاً من توعد الآخر بنار جهنّم، وتحديداً في تصور المسلم أنّ البشرية ذاهبة إلى نار جهنم، وهو اعتقاد بالغ الأذى في تربية الجيل، حيث تتأسس التربية، هنا، على احتقار الناس وازدرائهم، وسوء الظن بالخالق الذي يخلق الناس إلى جهنّم ولا يبالي.

الفصل الأول: الأصول الشرعية لإخاء الأديان

نتناول في هذا الفصل الأصول الشرعية لإخاء الأديان تأسيساً على الطريقة التقليدية في الاستنباط، حيث تتوفر نصوص كافية في الكتاب والسُنّة لتأسيس هذا الوعي، ولكن من الضروري التصريح مسبقاً بأنه يوجد قدر مماثل من النصوص يرفض الإخاء الديني كله.

في الواقع قد تكون مسألة الإخاء الديني أكثر القضايا إلحاحاً للوعي بطبيعة القرآن الكريم بأنه حمّال أوجه، وأنه تراث غنيّ، لا يمكن تكوين مواقف نهائية منه إلا بقدر كبير من التعسف، ومن العسير أن نستنتج من ظاهر النص القرآني منهجاً محكماً نهائياً، لأن الجدل مستمر في كل استنباط يمارسه المفسّرون.

وهذه الظاهرة مؤكدة في كتب التفسير كافة، حيث تقف على الرأي والرأي الآخر، والمسألة ونقيضها، ورحم الله الإمام القرطبي الذي كان يعد المسائل، ويقول: وقد اختلفوا في المسألة على قولين وثلاثة وأربعة وبعضها عشرة، وكلٌ له وجهه واستدلاله، والمسألة الموفية عشرين والموفية ثلاثين وأكثر، ولقد أحصيت في (الشاملة) فعل «اختلفوا» أو «اختلف فيه» ضمن تفسير القرطبي فبلغ (1355) مرة. أما تفسير الطبري الأسبق زماناً فقد ورد هذا الفعل فيه (2650) مرة. وهذه أرقام نستأنس بها ولا تنهض بها حجة مستقلة، ولكنها تعكس روح التعددية والاختلاف السائد في الوعي بدلالات النص القرآني، وهذا في الواقع شأن كل النصوص الأدبية التي تتخذ للاسترشاد والتنوير بخلاف النصوص القانونية الصارمة التي يفترض فيها ندرة الاختلاف.

وهكذا فنحن نورد الآية ونعلم ما يقابلها، وسنأتي على ذكر الأدلة المعارضة، ولكن بعد أن نستوفي الفكرة في بناء ثقافة إخاء الأديان على أساس من الأدلّة النصية المتوفرة.

ولا خلاف في أنّ الإسلام قدم احتراماً كبيراً وغير محدود للديانات الأولى، وأثنى على الأنبياء بخالص العبارة، وخاصة المؤسسون للأديان الباقية وهم موسى مؤسّس اليهودية، ويحيى مؤسس الصابئة، وعيسى مؤسس المسيحية.

ولا خلاف في أنّ أعظم ثنائه على إبراهيم، ويعتبر إبراهيم رمزاً أعلى للأديان الثلاثة المسيحية واليهودية والإسلام، وهو بذلك محلّ احترام وتبجيل عند نصف سكان الكوكب الأرضي، على أقل تقدير.

وإضافة إلى الأديان التوحيدية التي تنتمي إلى إبراهيم فإنّ أتباع الديانات: الصابئية واليارسانية والبهائية تؤكد صراحة أنّها تنتمي إلى إبراهيم.

كما أن الهندوسية تعتبر مؤسسها براهما، وتسمى في الأدب الإسلامي: الديانة البرهمية، ولا يوجد اتفاق على شخصية براهما مؤسس الديانة، والإله الأكبر فيها، ومن الواقعي أن نطرح للتداول افتراض ارتباط اسم براهما بالنبي إبراهيم، فسائر الدراسات التاريخية تؤكد أنّ الديانة برمتها قد ظهرت بشكل واقعي إبان غزو الآريين القادمين من الأراضي الإيرانية وبلاد الرافدين قبل ألف وخمسمئة عام، وهي الفترة التي كان إبراهيم قد بشّر فيها في العراق، وشاعت مكانته في المنطقة كرمز لديانات التوحيد[8].

أما الزرادشتية فإنّ التشابه هائل بين ما يروى عن زرادشت وما يروى عن إبراهيم، وبشكل خاص في تفاصيل القصة المعروفة عن مقاطعة أسرته له ومحاربتهم له، وقيام رئيس الكهنة بإلقائه في النار مراراً، وكيف وصلت أمّه فرأته يلهو وسط النار دون أن تؤذيه النار في شيء، وأنّ هذه المعاناة استمرت سائر حياته وحتى لقاءاته المتتالية بالملك كاشتاسب[9] وإيمانه برسالته ثم نكوصه عليه تشبه ما يروى في معاناة إبراهيم مع النمرود إلى حدّ بعيد، ومن الواقعي أن نطرح الترابط بين الزرادشتية وبين دعوة إبراهيم، وهناك ما يساعد على الافتراض أن زرادشت وإبراهيم هما شخص واحد في التاريخ.

---

[8] – هناك من يرى أنّ بداية الحضارة في وادي السند كان بحافز حضاري من وادي الرافدين، وبشكل خاص في مجال الكتابة والعمران والتجارة، وهذا مرجّح بسبب السبق الحضاري لحضارة وادي الرافدين زمنياً؛ ويؤيد هذا تواصل الرحلات التجارية بينهما على مدى التاريخ القديم، ونظرية الغزو الآري للهند هي إحدى النظريات المستخدمة لاستكشاف التاريخ القديم للهند، وتقول هذه النظرية أن قبائل بدوية أوربية– هندية أفرادها من ذوي البشرة الفاتحة احتلت الهند وأطاحوا بقبائل تنتمي إلى الحضارة الدرافيدية؛ وهؤلاء من أصحاب البشرة الداكنة، كان ذلك حوالي (1000–1500) عام قبل الميلاد . أخذ الآريون فيما بعد مكانة كبيرة في الهند وأسسوا حضارتهم الخاصة التي عرفت بالحضارة الهندوسية، وقد اكتسبت هذه النظرية شهرة واسعة وباتت معتمدة لدى الباحثين الأوربيين، وقد آمن بها معظم العلماء الغربيين وصدّقوها لأنه لم توضع أسباب كافية لإنكارها أو دحضها.

ويعتبر غوستاف لوبون في كتابه (حضارات الهند) أنّ البراهمة هي ديانة الكهنة في الهندوسية، وقد نشأت عقب الغزو الآري للهند بين (1000–1500) قبل الميلاد، وهي موضوع الملحمة الهندية الكبرى الماريانا التي تحدثت عن الثقافة الوافدة من الغرب، وأن قادة الفتح الآري هم الذين تحولوا فيما بعد إلى آلهة معبودة في عموم الهند.
المصدر: كتاب ديفيد فراولي: أساطير الغزو الآري للهند
David Frawley: The Myth of the Aryan Invasion of India
www.smithsonianmag.com، اطّلع عليه بتاريخ 28–11–2020م.
غوستاف لوبون، حضارات الهند، ص84، google books.

[9]

إنّ التركيز على دور إبراهيم المحوري لا يعني أبداً أننا نفترض ديانة إبراهيمية نبشر بها، وأنّ لها أصولاً وفروعاً وأركاناً وشعائر، فذلك كله غير واقعي، ولكننا نورد هذا السياق تأكيداً على وجود رغبة حقيقية في الإسلام في بناء مشترك إنساني بين الأديان، وتشابه في المقاصد والغايات والوسائل.

وفي سبيل تأكيد هذه الحقيقة فإنّ أركان الإيمان الخمسة التي أُمر المسلم بالتصديق بها تشتمل على ركنين اثنين يتصلان بالإيمان بالنبوات والكتب الأخرى، أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فلا يتم إسلامك إلا إذا صحّ منك الاعتقاد الجازم الصحيح بنبوة الأنبياء وطهارتهم وقدسيتهم وكذلك بالإيمان الجازم بقدسية ما جاؤوا به من الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى.

ودون أدنى شك فإنّ هذا الإيمان الجازم بالنبوات والكتب يستدعي احترام الأنبياء وأصحابهم وتابعيهم بإحسان، ويستدعي احترام الكتب التي جاؤوا بها، وهو ما أكده القرآن الكريم في أربعة عشر موضعاً تكررت في القرآن الكريم بصيغة {مصدقاً لما بين يديه}، {تصديق الذين بين يديه}.

ولكن هذا الاحترام الكبير الذي يشير إليه القرآن الكريم للأديان في آيات كثيرة لم يمتد بعد القرآن في تراث أبناء الأنبياء، وتغيرت النظرة للديانات بعد عصر الوحي، وغلبت الفكرة القائلة بأنّ الإسلام نسخ الأديان جميعاً، ولم يعد هناك وجه لبقاء دين بعد الإسلام. وبات على سائر الأديان أن تعترف بالحقيقة، وأن تخلع ما هي فيه، وأن تتبع ما جاء به الوحي المبين، وشاع لدى الناس أنّ الإسلام نسخ الأديان من قبله، وأنّ كل ديانة باقية فهي ديانة محرّفة باطلة، وأتباعها أشرار يعلمون الحق ويجحدونه.

ويمكن القول بأنّ المجتمع الإسلامي عرف لونين من الاعتقاد في هذه المسألة:

– رأي العامة من رجال الدين، وهو رأي الأغلبية الذين كانوا في سياق الفقهاء عموماً، وهو أنّ الأديان قد نسخت وقد بات أتباعها مدعوين لترك أديانهم والدخول في الشريعة الخاتمة، وأنّ الله لن يقبل صرفاً ولا عدلاً من أحد من البشر ما لم يدخل في الدين الحق.

– رأي الخاصة من أهل العرفان، وهم قلة بالنسبة للأغلبية الكاثرة. وهؤلاء يرون أنّ الحكمة والنور والنبوة التي وصلت إلى الأمم هي سبيل صحيحة لعبادة الله تعالى، وأنّ الله يتقبل من المتقين من كل أمة ومن كل دين.

ولكل من الفريقين برهانه ورجاله وأئمّته. وسنبسط القول بما يكفي لشرح وجهة نظر الفريقين، وسنبين سبب اختيارنا لمذهب أهل العرفان، والبراهين التي نسترشد بها من المنقول والمعقول.

- **الأدلة من القرآن الكريم**

إنّ دراسة متأنية في القرآن الكريم ستجعلك تدرك مباشرة أنّه يَنظر إلى العالم نظرته إلى الأسرة الإنسانية الواحدة، وليس تأكيده المستمر على قصة آدم وحواء إلا لترسيخ هذه الصورة، فنحن أسرة واحدة في العالم، وعلينا دوماً أن نسعى للقاء من جديد، وأن نهدم ما بناه الشر والبغي في الأرض من جدران وحدود وقطيعة، لتنعم الإنسانية بروح الأسرة الواحدة.

وتبدو النبوات كلها رسالة واحدة متتابعة: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ،﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾

وهذا المعنى الذي يقود إلى إخاء الأديان لم تتناوله الآيات عرضاً، بل هو في صلب مقاصد القرآن الكريم، يكاد يتلمّسه المسلم في كل صفحة من الكتاب الكريم:

سورة الفاتحة التي هي أمّ الكتاب، تبدأ بتقرير {الحمد لله رب العالمين} وهو ما يعني براءة الدين الحق من الفهم العنصري الإقصائي حيث يكون الرب خادماً لشعبه متربصاً بغيره من الشعوب، لا يعنيه منهم إلا الانتصار عليهم يكرر عبارة: وأفنيهم فأصيّرك شعباً عظيماً...

وسورة الناس التي اختتم بها القرآن الكريم تتصل بالفاتحة في التأكيد على أنّ الله {رب الناس ملك الناس إله الناس}، وهي صيغة في التعبير طافحة بالإخاء الإنساني وملهمة في إخاء الأديان، وتشتمل دعوة صريحة وواضحة إلى أنّ الله في النهاية هو الخالق الحقّ الذي يقصده الناس جميعاً مهما اختلفت طرائق تعبيرهم ومناهج حواراتهم.

فلم يقل في الفاتحة رب المسلمين ولا قال في الناس رب المؤمنين، بل كان الخطاب عاماً يشمل كل الخلق من كل الأديان والملل والنحل.

وما بين مفتتح القرآن الكريم ومختتمه تتالى الآيات بأساليب شتى لتؤكد الإخاء الإنساني ووحدة الأديان في مقاصدها، ووحدة الرسالة التي بشر بها الأنبياء، وأنّ هذا هو السياق المستمر المطلوب لبناء الحياة والسعادة في كوكب الأرض.

سورة البقرة تفتتح بقوله سبحانه: {الذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلك} وهي إشارة واضحة إلى ركن الإيمان اليقيني: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والإيمان بالكتب والرسل يفتح الباب واسعاً أمام دعوات الحوار لنقف على الكلمة السواء.

وتختتم سورة البقرة بقوله سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ البقرة: ٢٨٥

وهو تقرير واضح لأخوة الإيمان بين الأنبياء الكرام، والتي ينبغي أن تتجدد في أبنائهم.

وما بين مفتتح سورة البقرة وخاتمتها تتجدد قضايا دعوة الحوار أكثر من أربعين مرة، بل إنّ اسم سورة البقرة إنما يومئ إلى قصة طافحة بالعبر من قصص أهل الكتاب الذين هم المقصود الأول بالحوار.

وسورة آل عمران تفتتح بقوله تعالى﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ﴾

وهو استهلال عظيم يكشف عن مقاصد السورة الكريمة في دفع الحوار إلى ساحة يشعر فيها أبناء الأنبياء بتكامل مقاصدهم، كما كان آباؤهم الأنبياء يُبعثون مصدّقين برسالات من سبقهم من إخوانهم الأنبياء.

وتختتم السورة بتقرير سعة رحمة الله للمؤمنين بالأنبياء جميعاً ولا يفرّقون بينهم لقوله تعالى﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ ﴾ آل عمران: ١٩٩

وما بين المطلع والخاتمة تتكرر صور الحوار ومشاهده وغاياته وآدابه، حتى يوشك أن يكون المقصد الرئيس لدلالات هذه السورة العظيمة، حتى إنّ اسم السورة (آل عمران) يكشف عن تلك المقاصد، إذ هم أهل بيت السيد المسيح.

وفي سورة النساء تفتتح السورة بخطاب إنساني عام يحمل دعوة الحوار والإخاء، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ النساء: ١

ويجيء في آخر السورة بيان واضح جلي باجتماع مقاصد الأنبياء على تحقيق العدل والخير، وتكامل الرسالة الواحدة: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ ﴾ فتضيف الآية إلى جانب الأديان الإبراهيمية طائفة عظيمة من الأديان

عبرت عنها الآية: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾، وفيها تأكيد وجود رسالات غير مذكورة في القرآن، مع التأكيد في آية أخرى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ وكذلك الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يونس: ٤٧

ولو مضينا في استعراض سور القرآن الكريم واحدة واحدة لطال بنا المقام، وتأكّد لكل مسلم أنّ مسألة الإخاء بين الديانات موجودة في كل صفحة من صحائف هذا القرآن المجيد، (فالمائدة) اسم لمعجزة من معجزات السيد المسيح، وهي في الوقت نفسه تعبير عن اجتماع المخلصين حول (مائدة الحوار)، (وسورة الأنعام) حافلة بأخبار إبراهيم وذريته من الأنبياء الكرام الذين دُعينا لاتباع هديهم ونهجهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ وتمضي السورة في التوكيد على الحقيقة ذاتها.

وتتتابع (سور الأنبياء يونس وهود ويوسف) حتى تنتهي إلى سورة بني إسرائيل (الإسراء) إلى (سورة الكهف) وهو الغار الذي لجأ إليه مؤمنون من النصارى فراراً بدينهم من مظالم الرومان، حيث ذكر القرآن جهادهم، وأمرنا بترتيل خبرهم هذا كل أسبوع مرة إظهاراً لوشائج القربى، ثم تعطف إلى (سورة مريم) أم السيد المسيح (وسورة طه) التي تضمنت تفصيل حياة نبي الله موسى ومعجزاته، ويكتمل الإيحاء في سورة خاصة أنزلها الله عز وجل، وسميت (سورة الأنبياء) ثم يكتمل المعنى في سورة خاصة (المؤمنون) التي تورد ذكر رسالة نوح وإبراهيم وإخوانهم من الأنبياء ثم تقرر: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ويتأكد المعنى بعد ذلك في سورة بعد الأخرى، وتتالى آيات الدعوة إلى الحوار والتراحم في القصص والنمل والعنكبوت التي ترسم أفقاً عالياً للحوار بصيغة واضحة ودقيقة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ العنكبوت: ٤٦

ومن الممكن أن نجد هذا المعنى في كل سورة في القرآن تقريباً، حيث يتتالى ذكر الأنبياء ورسالاتهم، وكتبهم المقدّسة التي بشّروا بها، ومن اللافت أنّ عدداً كبيراً من السور القرآنية اتخذ اسم نبي أو ديانة أو أمة أخرى تأكيداً على الهدف الأسمى في بناء ثقافة إخاء وتواصل وتكامل، قائمة على الاحترام وليس على الإلغاء، فمن السور: سورة آل عمران، سورة بني إسرائيل (الإسراء)، سورة نوح، سورة إبراهيم، سورة هود، سورة يوسف، سورة يونس، سورة الأنبياء.

وفي القرآن الكريم يتكرّر النداء بصيغة «يا بني آدم» خمس مرات، كما يتكرر النداء بصيغة «يا أيها الناس» 21 مرة، وهي صيغ توحي بالنظرة الكلّيّة للعائلة الإنسانية، وأنّ الإنسان أخ للإنسان أحبّ أم كره، وأن على الناس أن يعملوا لبناء الأسرة الواحدة.

إنّه لمن الغريب بعد ذلك أن يكون موضوع إخاء الأديان محلّ خلاف، إذ ما جدوى أن نؤمر بالإيمان بالرسل الكرام وتصديق شرائعهم واتباع نورهم ثم لا يقودنا هذا المعنى إلى حوار وتعاون وإخاء جدّي وصادق مع أتباع هؤلاء الأنبياء؟!

وما جدوى أن نتحدّث بالتصديق والإكبار والإعجاب عن الرسل الكرام عليهم السلام وهم في عالم البرزخ، ثم نتبع هذا الثناء والإكبار بتبادل اللعن المستمر وتتابع الشحناء والبغضاء مع أتباع هؤلاء المرسلين، ولا نجادلهم ونحاورهم بالتي هي أحسن اتباعاً لمنهج القرآن الكريم؟!

وبعد هذا الاستهلال برصد الإشارات العابرة يمكننا أن ننتقل إلى بعض النصوص القرآنية المباشرة:

- ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

ورد هذا النص القرآني الحكيم (14) مرة في القرآن الكريم بصيغ متقاربة، {مصدق الذي بين يديه}، {مصدقاً لما بين يديه}، {تصديق الذي بين يديه}، وقد وردت هذه التأكيدات الواضحة مراراً لدى الإشارة إلى علاقة القرآن الكريم بالنبوات الأخرى وبالكتب السماوية المنزّلة، ومن ذلك مطلع آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ آل عمران: ١ – ٤

وفي الصيغ جميعاً تذكر الكتب السماوية بغاية الإجلال والاحترام، وأنّها تصدق القرآن الكريم ويصدقها، ولم يرد أي نص في القرآن الكريم يفيد أنّ هذه الكتب قد نسخت أو بطلت أو فشلت، وإنما هي نصوص وحي إلهي يحمل مضامين تربوية عالية، وهي كالقرآن الكريم كلمة الله، ونوره وهداه، وإن كانت الإشارة قد وردت في الكتب جميعها أنها نور يهدي وليس قيداً يأسر، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان، وأن لكل أمة جعلنا شرعة ومنهاجاً.

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ المائدة: ٤٤

والآية صريحة وواضحة بأنّ التوراة كتاب عظيم من الله، فيه هدى ونور، وأنّه مصدر للحكمة والنور، وأنه هدي أخذ به النبيّون والربانيون خلال التاريخ، ومن المدهش أنّ هذه الآية ختمت بالنص الذي يستخدمه الجهاديون دوماً: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}، وهو يعني أنّ هذه النصوص السماوية متساوية، وهي تملك دوراً متشابهاً خلال التاريخ، وعندما يحكم بها الأنبياء والربانيون فهي ملزمة لسائر

الرعية، وهي قانونهم وحياتهم، ولكنها تتطوّر مع القرون، وتحتاج في كل عصر جديد لشرعة ومنهاج ينسج على منوال مقاصدها.

وفي الآية دعوة الشعب اليهودي للاحتكام إلى التوراة والعمل بمقاصدها، وهي تشتمل على القيم والفضائل، كما أنّ فيها من أحكام الشرائع التي تتجدد وتتغير بتغير الأزمان.

ومن المؤكد أنّ القرآن الكريم أشار إلى بعض محاولات من الكهنة وغيرهم لتحريف بعض نصوص الكتاب أو معانيه. ولا يمكن فهم ذلك على أنّه إلغاء لما في الكتب الأولى من هدى ونور، وإنّما هو بمنزلة التنبيه إلى المحاولات المستمرة لاستغلال النص الديني التي لا تتوقف، وقد حاول الأشرار فعل ذلك في القرآن نفسه.

- ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ المائدة: ٤٧

والآية صريحة بان الإنجيل كتاب الله وأنّه مصدر أحكام وإلهام، وفي تطبيق الإنجيل أيضاً نزلت الآية الكريمة {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه}، والمقصود مقاصده وغاياته التي دعا إليها، ومن المعلوم أنّ الإنجيل ليس فيه شريعة، بل موعظة ونصيحة، ومع ذلك فقد جاء الوعيد شديداً على الذين لا يحكمون بما أنزل الله فيه، والمقصود بطبيعة الحال المقاصد وليس الأحكام.

وفي الآية دعوة للمسيحيين للاعتصام بدينهم وتطبيق ما فيه من الفضائل التي تشترك فيها الديانات، وهو إقرار جلي بإخاء الأديان وتساويها وتكاملها وبناء بعضها على بعض.

- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ آل عمران: ١٩٩

والآية واضحة في الثناء على طائفة من أهل الكتاب يؤمنون بأديانهم ويؤمنون بالإسلام ديناً كريماً، ويقرؤون آيات الله التي أنزلت عليهم خاشعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، والآية نص في أنّ الله تعالى يثيبهم أفضل الثواب في الآخرة، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، ومقتضى الآية الكريمة أنّ الجزاء الأخروي حق لهم، وفق ظاهر الآية {أولئك لهم أجرهم عند ربهم}.

ومن المعلوم أنّ هذه الآية نزلت على النبي ﷺ عند وفاة النجاشي، حيث كان قد أعلن إيمانه بالرسول، ولكنّه استمر في عقيدة النصارى، وحوله البطارق، ومات على المسيحية، وحين دعا الرسول الصحابة

للصلاة عليه اعترض بعض الصحابة وقالوا: نُصلّي على علج من علوج الروم ليس على ديننا؟! فنزلت الآية:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ البقرة: ١١٥

ومقتضى هذه الآية أنّ الله تعالى يستمع الدعاء والعبادة من كل من توجّه إليه بإحسان، أياً كانت القِبلة التي يتبعها أو الديانة التي يلتزمها، حيث هو سبحانه منزه عن الجهات والمكان، وهو أقرب إلى عباده من حبل الوريد.

وقد روى الطبرى عن قتادة أنّ هذه الآية نزلت في النجاشي أيضاً، فحين دعاهم الرسول للصلاة عليه وأنزلت آية آل عمران كما بينا، عاد بعض الصحابة فاعترضوا وقالوا: إنه لم يكن يستقبل قبلتنا ولا يعرف صلاتنا فأنزل الله تعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم}.

والآية صريحة في قبول إيمان أهل الأديان، سواء كانوا من أهل القِبْلة أم من قبلة غيرها طالما عبدوا الله بإحسان وأحسنوا في عباده.

- ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ الزلزلة: ٧

يعتبر هذا النص الكريم الذي ختمت به سورة الزلزلة من أوضح ما تلقاه الناس عن الوحي المعصوم في إثبات عدالة الله تعالى، وأنّه لن يظلم الناس مثقال ذرّة من العمل الصالح، وقد عبّرت الآية بلفظة (الناس) وهي سياق عموم لا مخصّص متّصل له، فيبقى على عمومه.

ومن اللافت أنّ الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن مصائر الناس في الآخرة، حين تزلزل الأرض زلزالها، وتحدّث الأرض أخبارها، ويقول الإنسان مالها، وهو مشهد يشرح اللحظة الحاسمة حيث يلقى الناس مصائرهم وجزاء ما قدموه، وعند ذلك يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، ومن الواضح أنّ القرآن الكريم استخدم هنا الناس ولم يستخدم لفظ المؤمنين أو المسلمين، والناس لفظ عام يشمل سائر الخلق من مسلم وغير مسلم، وحين يستقرون على ضفة الحساب الفاصلة، يأتي الخبر نصاً مباشراً واضحاً: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}.

والذرّة في عُرف المفسّرين حبّة الرمل، أو هي الهباب الذي يتصاعد غباره من السجّاد حين تكنسه، والهبابة الواحدة منها يقال لها ذرة، ولو قسمتها إلى (24) قسماً فهذه قيراط ذرة، أما لو قسمتها إلى (48) قسماً فأنت هنا تملك مثقال ذرة، وهذا هو الذي قال القرآن عنه إنّه لا يضيع ثوابه يوم القيامة.

- ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ الكافرون: ٦

وهذه الآية الكريمة في سورة الكافرون واضحة في إقرار انتساب الآخرين إلى أديانهم، وهي أيضاً صريحة في أنّنا لا نعبد ما يعبدون وأنّهم لا يعبدون ما نعبد، ومع ذلك فهي صريحة أيضاً في أنّ لهم دينهم، وأنّ المسلم مأمور بالإحسان إلى البشر جميعاً، وأنّ المطلوب هو توفير اعتراف قانوني واجتماعي بأديان الآخرين، وقد سماه القرآن الكريم ديناً مع أنّه عبادة أصنام، وكان السياق أن يقول: لي ديني ولكم كفركم، ولكنّه أشار بوضوح إلى حقّهم في التديّن بدين آخر، طالما أنّ العلاقات بين الديانتيْن تقوم على العدل والمساواة والقانون.

ومع ذلك فلا يخفى أنّ في الآية لونَ وعيد للكافرين بأنهم سيحاسبون حساباً شديداً على الشرك، ولكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بدينهم وإقرار حقهم في ممارسته.

وأستطرد هنا إلى القول بأنّه كان من الممكن تماماً أن يبقى المشركون على شركهم لو سمحوا للمسلمين بإقامة دينهم، وأن يعيش التوحيد في الشرك في مكة على قاعدة {لكم دينكم ولي دين}، وبالتأكيد فإنّ الناس سيتحوّلون تدريجياً إلى التوحيد مع تتالي نجاحاته سلمياً دون أي إرغام، ولكن قيام قريش بإخراج المسلمين من بيوتهم وأرضهم ووطنهم هو الذي نقل الصراع إلى مكان آخر، وسمح للنبي الكريم أن يقضي على باطلهم وأوثانهم بعد فتح مكة.

- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾

وردت هذه الآية الكريمة في سورة النساء، وفيها اعتبار إلقاء السلام أمارة كافية لاعتبار الرجل مؤمناً، وظاهر النص لا يشترط للإيمان الشهادتين ولا الصلاة ولا الصيام، وإنّما يشترط إلقاء السلام والعمل لأجل الإنسانية ونشر السلام.

وتشير الروايات إلى أنّ سبب نزول هذه الآية كان في رجل قتله المقداد بن الأسود في إحدى السرايا، وكان قد قال لهم: السلام عليكم، فنزلت.

واللفظ باق على عمومه، فالاسم الموصول من ألفاظ العموم الباقية على عمومها، ومعناه أننا مأمورون أن نحكم بالإيمان على من يعمل للسلام وينشر السلام ويلقي السلام.

والمعنى الظاهر للآية أنّ السلام هو قيمة روحية ومعنوية، وهو من أهم أمارات صحة الإيمان، وهذا المستوى الذي ترتفع إليه الآية الكريمة يتسامى على كل المعايير التي كانت سائدة في تلك المرحلة من التاريخ، ويؤسس لاعتراف عميق بالإيمان على أساس العمل الصالح، وبذل السلام، دون تفصيل في طبيعة الاعتقاد.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ الممتحنة: ٨

وهذه الآية واضحة في وجوب البر والقسط مع المخالفين في الدين إذا كانوا سلميين لا يمارسون الحرب ضد المسلمين.

ولا شك في أنّ التعبير بكلمة أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم يشتمل على معنى عميق من المودّة والرحمة، فهو لا يقتصر على إقامة العدالة والمساواة والإنصاف، بل يتعدى ذلك إلى البرّ والقسط، وهي مفاهيم أخلاقية رفيعة، تتسامى على الإطار الحقوقي وتؤسس لقيم البر والود، وهو ما يكون عادة في الأسرة الواحدة وفي القرابة والرحم.

ومن المدهش أنّ هذه الآية لم تنزل في النصارى واليهود من أهل الكتاب، بل نزلت في المشركين الوثنيين من كفار قريش، ممن لم يقاتلوا ولم يظلموا المسلمين، وذلك حين قالت أسماء بنت أبي بكر لرسول الله: يا رسول الله إنّ أمي زارتني وهي مشركة أفأَصِلها؟ فقال: «صِلِي أمك»، ونزلت هذه الآية الكريمة.

- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ آل عمران: ٦٤

وهذه الآية أصل في بناء الحوار مع أهل الكتاب على أساس الاحترام والتقدير، فقد سماهم أهل الكتاب إشارة إلى كتابهم الكريم ومكانته عند الله تعالى، ثم دعا إلى حوار في منطقة سواء، ومعنى ذلك القبول بهم كمؤمنين، ثم البحث عن المشترك بين الديانات السماوية.

ومن اللافت أنّ الآية لم تطالب بأركان الإسلام الخمسة ولا بأركان الإيمان الستة، وإنما دعت الجميع إلى منطقة وسطى مشتركة للحوار، تقوم على شرطين: الإيمان والعدل، أن نؤمن بالله ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وهي مطالب قريبة ويمكن لهم تلبيتها دون الخروج من دينهم، وبذلك يمكن العمل بما اتفقنا عليه والإعذار فيما اختلفنا فيه، وهو ما ابتكرت له الآية الكريمة مصطلحاً لطيفاً صار أشهر وجوه التعبير عن منصة الحوار: وهو الكلمة السواء.

وبطبيعة الحال فإنّ الآية صريحة في البراءة من أهل الكتاب إذا تولوا عن الحوار وأنكروا الإيمان بالله، وأصروا على استعباد بعضهم بعضاً، ومنع الحريات الدينية، ومع ذلك فإذا فشل الحوار فإنّ المطلوب هو تأكيد إسلامنا لله، والاستمرار في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ آل عمران: ١١٥

وهذه الآية الكريمة نص في عمل أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى عند المفسرين، وإن كنت أجد أنّ المعنى المراد أوسع وهو الأمم الواعية التي تقرأ الكتب وتحتكم إلى القانون، وتمام الآية: {ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويسارعون في الخيرات والله يحبّ المتّقين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين}.

وقد دلّت هذه الآية الكريمة على أنّ أبناء الأديان إذا ظهر إنصافهم وإيمانهم فإنّهم مشمولون برحمة الله، وأنّ أعمالهم الصالحة محفوظة عند الله تعالى، لا يظلمون ولا يظلمون، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه.

- ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ البقرة: ١١١ – ١١٢
- ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ النساء: ١٢٣

وسياق الآيتين واحد، فقد نعى القرآن الكريم على طائفة من أهل الكتاب ذهبوا إلى احتكار الخلاص في دينهم، واعتبروا إيمان الآخرين باطلاً، فقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيّا، فأنزل الله تعالى هذه الآية المحكمة، ثم أعقب ذلك بقوله: {تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين}.

وواضح أنّ الله تعالى سمى احتكار الخلاص أماني وأوهاماً، وطالبهم بالبرهان في هذه الدعوى ولا برهان.

وحين قال المسلمون ما قاله أهل الكتاب من قبل: لن يدخل الجنة إلا من كان مسلماً، فإنهم وقعوا في الأماني نفسها، فنزلت الآيات في غاية الصراحة والوضوح وهي لشدة وضوحها لا تحتاج إلى تفسير ولا تأويل: {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً}.

- ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ النساء: ١٢٤

وفي هذه الآية الكريمة فإنّ القرآن الكريم يتحدث عن الإيمان والعلم الصالح، وهو نصّ عام ويشمل كل مؤمن بالله ولو لم يكن على ملّتنا، ويبشّره بالجنّة ويؤكد له أنّه لن يظلم من عمله الصالح مقدار نقير، والنقير هو النقرة التي تكون على ظهر بذرة النواة (التمرة) ومع هوان هذه النقرة ولا قيمتها، ولكن الله تعالى لن يضيع عملاً صالحاً مهما كان صغيراً وقليلاً، ولو كان بثمن نقرة التمر.

ولا تشتمل الآية من صفات الإيمان أكثر من الإيمان بالخالق، وقد أقرّ رسول الله الإيمان بمجرّد الاعتراف بوجود الخالق كما قبله من الجارية عندما سألها «من ربك؟» فأشارت إلى السماء، فقال للصحابي: «أعتقها فإنّها مؤمنة».

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ النساء: ١٢٥

وفي هذه الآية بيان قرآني بالغ الأهمية بالدعوة إلى الاجتماع على ملّة إبراهيم، واعتباره أحسن الدين، واعتباره الحنيفية السمحاء، وهذه الآية لها نظائرها في القرآن الكريم، وهي كثيرة، ومنها هذه الآيات الست:

- {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً}.
- {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه }.
- {بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.
- {قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً}.
- {قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.
- {ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل}.

ولا شك في أنّ الدعوة إلى ملّة إبراهيم والثناء على ملّة إبراهيم، وخاصة في معرض الحوار مع اليهود والنصارى يتضمن إشارة حقيقية واضحة للقاء على أصول مشتركة جامعة مع الأديان، ومن المعلوم أنّه لم يرو من شريعة إبراهيم إلاّ الإيمان وبعض الفضائل وخصال الفطرة، وهي معان تؤمن بها كل الأديان، وهذا وجه حكيم من دعوة المسلمين للبحث في الأصول المشتركة، وابتكار منصّات للحوار واللقاء تحت مظلة النبي إبراهيم الذي هو أصل الديانات السماوية في القرآن: الإسلام والمسيحية واليهودية والصابئة، وقد أشرنا خلال الدراسة إلى أثر إبراهيم في الديانة البرهمية الهندوسية والزرادشتية واليارسانية من الديانات القائمة اليوم.

- ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ ﴾ البقرة: ١٢٨
- ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ ﴾ البقرة: ١٣٢

وهذا دعاء النبي إبراهيم، وفيه بيان أنّ الإسلام اسم جامع لما علمته الديانات السماوية من إسلام الوجه لله، وبذلك فإنّ الدعوة إلى الإسلام يمكن أن تكون دعوة إلى القيم الإبراهيمية التي بشّر بها من الإيمان والفضائل، وهي محلّ احترام وتقدير في الديانات كافة.

ومن المؤسف أنّ الحديث عن ملة إبراهيم بات يثير الشكوك لدى رجال الدين، الذين يرونه اعترافاً بالأديان الباطلة، وتقهقراً عن التوحيد الخالص، وباتت الهيئات السلفية تصدر البيان تلو البيان في التحذير من ملة إبراهيم، ومشاريع الإخاء الديني التي تقوم تحت هذه المظلة النبيلة، وتذهب هذه البيانات المتتابعة إلى أنّه لا كرامة لأي شريعة ولا ملّة ولا كتاب بعد القرآن الكريم، وهذا سلوك يتناقض للأسف بشكل حادّ مع جوهر الرسالة القرآنيّة المنفتحة المتسامحة تحت عنوان ملّة إبراهيم.

- ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ البقرة: ١٣٦

وهذه الآية واضحة في وجوب إيمان المسلم بالأنبياء والثناء على هديهم وكتبهم ونورهم، وتؤكد على الأنبياء الذين لم يذكروا في القرآن، ثم التأكيد بعدئذ على مساواة الأنبياء ووجوب احترامهم جميعاً ولا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.

ولا شك في أنّ المساواة بين الأنبياء نظير للمساواة بين الأمم وبين الأديان طالما أنها تدعو للحق والخير والتوحيد والفضيلة، وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن الكريم، وهي كافية لبناء أوثق العلاقة مع المختلفين في الدين، على أساس احترام أنبيائهم ورسلهم، ودعوتهم بكامل الاحترام والتقدير للزيادة في الإيمان والعمل الصالح.

ومن المؤسف أنّ فكرة مساواة الأديان الواضحة والصريحة في هذه الآية ونظائرها كثيرة لا تحظى اليوم بقبول في خطاب رجال الدين في الإسلام، وتتأسس الفكرة الشائعة على ظهور الإسلام على الأديان ونسخها وإبطالها، وأن ما بقي من الأديان في الأرض جهل وباطل، لا برهان له في الدنيا ولا خلاص له في الآخرة، وإن كان كثير منهم من يعتقد وجوب إنصافهم وعدم إكراههم على الرغم مما هم فيه من دين فاسد وباطل ومحرّف.

- ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ آل عمران: ٣٣

تشير هذه الآية إلى منزلة فريدة منحها الله تعالى لآدم ونوح، وهما رمز للعائلة الإنسانية الواحدة، ثم تشير إلى مجد خاص بآل إبراهيم وآل عمران، وتؤسس هذه الآية وعياً رشيداً لبناء صلة متميزة ومحترمة ومكرمة مع أبناء إبراهيم من اليهود والنصارى والصابئة ومن ينتسب إليه من الأديان، وتخصّص منزلة خاصة لأسرة السيد المسيح وهم آل عمران.

ولا شك في أنّ ما أورده القرآن الكريم من آيات محكمة ومفصّلة في منزلة السيد المسيح وأمّه العذراء البتول، وتخصيص سورة كبرى للحديث عن هذه الأسرة المكرمة، وسورة كبيرة تحت اسم سورة مريم، وسرد تفاصيل قصة ولادة المسيح وطهارة أمه، وهي أدلة كثيرة جداً في القرآن والسنة... لا شك في أنّ ذلك يؤسس أرضية ممتازة للقاء إيجابي بنّاء بين الديانتين الأعظم في الأرض الإسلام والمسيحية قام على أعظم الاحترام والتقدير.

ومن الممكن منطقياً القول إنّه ليس شرطاً لهذا اللقاء الإيجابي الذي تدعو إليه الآيات أن يتخلى المسيحيّ عن مسيحيّته أو اليهودي عن يهوديّته، وإنّما تؤسّس منصّة لقاء وحوار متبادل بين الدينين العظيمين، تتسع فيه دائرة التسامح وتضيق فيه دائرة التصلّب والتشدّد.

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ﴾ البقرة: ٦٢

نزلت هذه الآية الكريمة بصيغتين متشابهتين جداً، في سورة البقرة وفي سورة المائدة، والمقصود من تكرارها التأكيد على إحكامها، وفيها النص الواضح على قبول إيمان المسلمين والمسيحيين واليهود والصابئة، وهذه هي الديانات التي كانت معروفة آنذاك في جزيرة العرب وما حولها.

وتؤكد الآيتان بوضوح أنّ العمل الصالح الذي يؤديه أتباع هذه الديانات هو عند الله بمكان ولا يزهق منه شيء، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتقيده بالإيمان والعمل الصالح، وليس في الآية ما يشير إلى أنها تحتاج إلى تخصيص أو تقييد أو نسخ، وقد تكررت لتأكيد المعنى إياه.

والآية أصل يمكن أن تقاس عليه كل الأديان التي نتعرّف إليها في العالم، فلم تذكر البوذية والهندوسية هنا وغيرها من الديانات لأنها كانت بعيدة عن جزيرة العرب، ولم يكن العرب يعرفونها آنذاك، وقد حرر البيروني في كتابه الشهير **(تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة)** أنّ الهندوسية ديانة توحيد، وأنّ وعيهم بالآلهة في ديانتهم يشبه وعينا بالملائكة، وأنّها في الأصل عقيدة توحيد، ثم دخلت فيهم الشركيات.

- ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ النساء: ١٦٤

وفي الآية إشارة واضحة إلى وجود نبوات ومرسَلون في كل مكان في العالم، وأنّ على المؤمن أن يتقبل وجود ديانات سماوية صادرة عن الله سبحانه، لم يستمع إليها في القرآن الكريم، وأن يسعى لبناء العلاقات الإيجابية والأخوّة الإنسانية معهم.

وقد يبدو هذا المعنى الإضافي غير وارد في الآية، ولكن من المؤكّد أنّه من مقاصدها، ولا تبرير أسبق في الذهن لذكرها في القرآن الكريم من هذا، وقد جرى الصحابة في التعامل مع الديانات الأخرى على هذا، واشتهرت كلمة عمر بن الخطاب حين قال في المجوس: وليس فيهم نص من كتاب أو سنة: سنُّوا بهم سنة أهل الكتاب.

والمعنى نفسه أيدته آيات قرآنية كريمة: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير، ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون}.

- ﴿ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ المائدة: ٨٢ – ٨٣
- ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ المائدة: ٨٥

وردت هذه الآية الكريمة في سورة المائدة في أعقاب الحديث عن قوم من اليهود والوثنيين حاربوا الرسول الكريم فوصفوا بأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، فيما ورد الثناء بوضوح على الذين هم أقرب الناس إلينا مودة، وهم الذين قالوا إنا نصارى.

من المؤسف أنّ كثيراً من المفسرين أخرجوا الآية عن سياقها وقالوا: إنّ المراد هم أولئك الذين دخلوا في الإسلام، والحقيقة أنّ هذا التأويل لا وجه له، فالقرآن يثني عليهم بعبارة «إنا نصارى» ولم يقل «كنّا نصارى»، ولو كانوا قد أسلموا لقال: ذلك بأن منهم صحابة ومهاجرين وأنصاراً، ولكنه قال ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، ثم أفاض في الثناء عليهم فقال: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض مما عرفوا من الحق}.

وفي الواقع فإن هذا هو حال كثير من أهل الكتاب الذين نعرفهم والذين يبادلوننا أخلص المحبة والتحية لكل مقدس في الإسلام، وفي الوقت عينه تذرف دموعهم وهم يسمعون في القرآن الكريم خبر ولادة السيد المسيح وأمه الطاهرة البتول.

ومن الواضح في الآية أنّ القرآن ينصّ صراحة على أنهم سيثابون في الآخرة، وأنهم سيكونون في حضرة الله تعالى مأجورين مشكورين، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وقد أورد أكثر المفسّرين سبب نزول هذه الآية في وفد النجاشي الذين جاؤوا يستطلعون أمر النبي الكريم وقد تأثروا بحديثه وكلامه وتلاوته وفاضت مدامعهم، ولكن من المؤكد أنّهم عادوا إلى الحبشة وهم على دينهم الأول، ولم يتم تدوين أي منهم في كتب تراجم الصحابة، بل كانوا كما وصفهم الله نصارى وقسّيسين ورهباناً.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ النساء: ٤٠

وقد وردت هذه الآية الكريمة نصاً في أنّ الله لا يجحد العمل الصالح أياً كان من ظهر منه، ومن الجلي أنّ الآية وردت بصيغة العموم ولم يرد عليها قيد أو مخصص، فتبقى على عمومها، وهي تشمل كلّ من قام بالعمل الصالح من البشر فإنّ الله لا يجحد عمله، ولا ينكر طاعته في الدار الآخرة.

- ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥ ﴾ آل عمران: ١١٣ – ١١٥

وردت هذه الآية الكريمة في سورة آل عمران، في بيان الطائفة المعتدلة من أهل الكتاب التي تؤمن بما أنزل إليهم وتتلو آيات الله في كتبهم ويقومون بالعمل الصالح على وجه يعود بالخير للإنسانية.

وفي هؤلاء ورد النص صريحاً مباشرة بقول الله تعالى {وما يفعلوا من خير فلن يكفروه}، ممّا يؤكد أهليتهم واستحقاقهم لنعيم الله في الجنة جزاء على ما فعلوه من خيرات.

وقد اختار عدد من المفسرين أنّ الآية نزلت في حق من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، ولكن ظاهر النص يأباه، ولو كان كذلك لما أفردهم بقوله {وما يفعلوا من خير فلن يكفروه}، فقد جاءت الآية كما هو

واضح لتنفي التساؤل الموهوم الذي أثاره بعض المعترضين، كيف يقبل الله منهم وهم على غير دين؟! فنزلت الآية: {وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين}.

- ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾ العنكبوت: ٤٦

وفي هذه الآية الدعوة الصريحة للحوار الإيجابي مع أهل الكتاب، والتأكيد على وحدة الدين على الرغم من الاختلاف الكبير بين العقيدتين، وينصّ القرآن الكريم على عبارة {وإلهنا وإلهكم واحد}، على الرغم مما ورد من نقد شديد في القرآن الكريم لعقائد أهل الكتاب، ويمكن اعتبار صيغة {وإلهنا وإلهكم واحد} عنواناً للقاء بين الأديان، والإخاء بين أتباعها على الرغم من الخلاف العقائدي، وهو توكيد على الوحدة في المقاصد على الرغم من الاختلاف في الآليات وسبل الوصول.

- ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩ ﴾ الدخان: ٣٨ – ٣٩

وفي هذه الآية تنزيه لله سبحانه وتعالى عن العبث في الخلق، ومن المؤكد أنّ الأمم التي سعدت بالإسلام لا تزال أكثر بكثير من الذين سعدوا بالإسلام، فلو كان هؤلاء قد خلقوا للجحيم والعذاب لمجرّد أنّهم في أديان أخرى فإنّ ذلك يستلزم على الله تعالى العبث، فقد خلقهم وهو أعلم بما هم فاعلون، ولا يزال الله تعالى يخلق مليارات من البشر، وحاشاه أن يكون الخلق عبثاً أو خطأ أو ضلالاً، بل هو الخلق بحق، ولا شك في أنّه أراد لهم السعادة والخير، وله سبحانه طرق متعددة يمنحهم فيها الإيمان والنور، {وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين}.

- ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ ﴾ البقرة: ١١٣

وردت هذه الآية في سياق أمراض الأمم، وهو مرض وقع فيه النصارى واليهود، يتمثل في احتكار الحقيقة، وقد نهى القرآن الكريم صراحة عن هذا الوهم، وأشار إلى أنّ تلاوة الكتاب تقتضي غير ذلك، والآية صريحة في الدعوة إلى أن نعتقد الخير في كل الكتب السماوية ومثلها كتب العلم والأخلاق والفضائل، وأن

في كل منها خيراً ونوراً، وبيّنت الآية أنّ الذين يعتقدون أنّ الله لم يهد سواهم، وأنهم يحتكرون الحقيقة هم جاهلون أو كما وصفتهم الآية {كذلك قال الذين لا يعلمون}، ويفتئتون على الله ما لا يعلمون، وأن واجب المؤمن هو التسليم بأنّ الحساب شأن الله، وأنّ العلاقة بين الأمم في الأرض يجب أن تقوم على العدل والإخاء والتراحم.

- ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠ ﴾ البقرة: ١٢٠

وهذه الآية في الواقع تتحدث أيضاً عن أمراض الأمم، وهو ما نسمّيه بالضبط احتكار الخلاص. فقد كان شأن الملل قبل الإسلام أن يحتكروا الحقيقة والجنّة، ويرون أنّه لا خير في المسلمين حتى يتركوا دينهم ويتبعوا ما التزمته اليهود والنصارى، وقد نعى عليهم القرآن هذا الفهم السقيم. والآية صريحة في إنكار احتكار الحقيقة والجنة، وأنّ الملة الحنيفية السمحاء يجب أن تكون على غير هذا وأن تتّسع لاختلاف المختلفين، وأن ترضى من المحسنين من كل الأمم ولو لم يتبعوا ملتنا، فالله وحده يهدي من يشاء على صراط مستقيم، وعلينا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ثم الإحسان في الخلق من كل الأمم والأديان والملل.

- ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ ﴾ المائدة: ١٨

وهذه الآية أيضاً جاءت في سياق الحديث عن أمراض الأمم، حيث يكتفي المؤمنون بالانتساب إلى نبي كريم، ثم يمارسون التعالي على الأمم وازدراء أعمالها الصالحة، والتأكيد على أنّ الله تعالى يثيب الناس بأعمالهم وإحسانهم في الخلق وليس بانتسابهم إلى الأنبياء.

وهذا المرض عينه قد وقع فيه المسلمون أيضاً حيث يعتقدون أنّ الله لم يهد سواهم، وأنّ الخير محجوب عن الأمم حتى تلحق بنا، وأنّ الشفاعة مختصة بالأمة المحمدية، وغير ذلك من الاعتقادات التمييزية التي نعاها القرآن الكريم على الأمم الأولى.

ومن المؤسف أنّ كثيراً من التفاسير تستفيض في تفصيل مقالات الأمم في احتكار الحقيقة والجنة والاستئثار بالله، وتشير إلى ذلك على أنه من علامات الخطأ في الاعتقاد دون أن تشير إلى أنّنا وقعنا في المرض نفسه، وبالعبارات ذاتها تقريباً.

وبعد، فهذه نحو ثلاثين آية كريمة تناولت من جوانب متعددة مسألة إخاء الأديان، وحسن التواصل والمودّة بين المؤمنين وبين أبناء الأديان الأخرى.

وفي الحقيقة فإنّ النصوص التي تدعو إلى الإخاء بين الأديان كثيرة ومتواترة في القرآن الكريم، وهي حاضرة في كل سور القرآن تقريباً، ولكن كيف أمكن تغييب دلالات هذه الآيات كلّها؟

لقد تمّ ذلك أيضاً عبر رؤية نصّيّة مختلفة، فالقرآن الكريم حمّال أوجه، والجدل مستمر، وقد تم سرد سلسلة من الآيات أيضاً تحمل القيود والتخصيص والنسخ على ما أوردناه من نصوص، وسأوردها الآن مع قناعتي التامة بأننا لن نصل إلى أي نتيجة في جدل النص والنص، فالنص نفسه حمّال أوجه، ودلالاته تختلف في الزمان والمكان، ولكل آية سبب نزول ولكل حديث سبب ورود، أو قل هو حكم أغلبي، ممّا يجعل الحوار الحدّي الظاهري غير منتج، ولكنّه على كل حال مفيد لفهم رؤية الطرفين.

لقد اختار عدد من المفسّرين الكرام إحكام ما ذكرناه من آيات، ووجوب العمل بظاهرها، وأنّها على سبيل الحقيقة لا المجاز، فيما اختار أكثر المفسرين ردّه وإبطاله بدلالة آيات أخرى اعتبروها ناسخة لها أو مخصّصة لعمومها أو مقيدة لإطلاقها.

وهذا سرد الآيات التي تنهى عن إخاء الأديان وتحذر منها:

- {إن الدين عند الله الإسلام}
- {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار}
- {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً}
- {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد}
- {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم}
- {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}
- {لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن في الآخرة من الخاسرين}
- {والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم}
- {وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون}
- {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}.
- {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا له كل مرصد}
- {قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين}

فقد اختار أكثر المفسرين أنّ آيات العموم السالفة قد تم نسخها أو تقييدها أو تخصيصها بهذه الآيات، وأنّه لا يتقبل الله إلا من المسلمين الذين اتبعوا رسول الله وعظّموا صحابته وأقاموا شعائره ولم ينكروا معلوماً من الدين بالضرورة، وبهذه القيود؛ فإنّ التوجه نحو إخاء الأديان يبدو مناقضاً للآيات الناسخة، والنجاة في الآخرة هي فقط للمسلمين الذين صح اعتقادهم وسلوكهم دون العالمين.

لا أستطيع أن أنكر قوة البرهان في الفريقين، فلكل فريق أدلّته وأجوبته على براهين خصومه، ويجب عليّ الاعتراف أنّ الأدلة أكثر تزاحماً في الطرف الرافض لإخاء الأديان، فالمفسرون عموماً كتبوا تفاسيرهم في ظلال دول إسلامية قوية كانت تمارس دورها التقليدي في مواجهة الأمم الأخرى، والحرب بين الدولة الإسلامية وأوربا المسيحية في الغرب والفرس والفيدات في الشرق لم تتوقف منذ الفتح الإسلامي، وقد التهبت خلال التاريخ بشكل مرعب كما في الحروب الصليبية في الغرب وحروب فارس والهند في الشرق، وكان الدين على رأس الحراب والسيوف في الطرفين، وكانت الدعوة لإخاء الأديان في ظروف كهذه تشبه الخيانة الوطنية في كثير من مراحل الصراع، وهذا ليس شأن المسلمين وحدهم بل هو واقع الحال في العصور الوسطى باستمرار، وقد استمر ذلك باطراد إلى قيام الدولة الحديثة وقيام القانون الدولي.

ولكن السبب الأكبر في ذلك كان في ظاهرة الغلوّ في النص التي وقعنا فيها، وهي أحد أشكال الغلوّ التي حذّر منها القرآن. فقد وقعت الأمم الأولى في الغلو بأنبيائها ووقعنا في الغلو بالنص القرآني، ومكانة الأنبياء كمكانة القرآن مقدسة وكريمة، ولكن الغلو فيها كان سبباً للانحراف عن أهداف الرسالة. أما الغلو في الأنبياء فكان في زيادة التقديس والغلو حتى نسبوا لله تعالى أبناء أو شركاء. وكذلك فإنّ الغلو في القرآن دفع بالمفسرين إلى وقف التدبّر والتعقل والاكتفاء في التأمل بالنص، وفرض النص حاكماً على العقل، وإبطال حكم العقل بحكم النص، وهو موقف المفسرين عموماً إلا قلة منهم اختارت تقديم المعقول وتأويل المنقول، وهو منهج الأستاذ الجليل ابن رشد ومن نهج نهجه من حكماء الإسلام.

وبالجملة فإنّني لن أمضي على الرد التفصيلي على كل دليل، ولكنني سأورد الأدلة إجمالاً، فالإسلام الذي جاءت الآيات الكريمة بالدعوة إليه دون سواه هو اسم واسع كبير، وهو لا يشبه المسيحية والموسوية والزرادشتية في الانتماء للأشخاص، فهو ليس المحمدية، بل هو الإسلام، وهو انتساب إلى الله تعالى، يندرج فيه كل من قصد الإيمان بالخالق سبحانه ولو اختلفت أسماؤه أو صفاته، فلله المشرق والمغرب فأينما تولوا وجوهكم فثمّ وجه الله، ولله أسماء بعدد ورق الشجر وحبات المطر وذرات التراب، وخير تفسير للإسلام هو النص القرآني نفسه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

وفي الواقع فإنّ الآية لم تذكر أكثر من إسلام الوجه لله، وهو ما تدعو له كل الديانات، ثم اشترطت أن يكون محسناً، وهذا هو العمل الصالح المطلوب من أهل كل ملة ودين ليكتبوا عند الله من أهل القبول، ثم

عقبت باتباع ملة إبراهيم، وهي صيغة جامعة شاملة تضم الأديان السماوية، ولا تزيد الشعائر المروية عن إبراهيم أكثر من عقيدة الفطرة والقيم الأخلاقية التي تتفق عليها سائر الأديان.

إنّ ما يلزم توضيحه هنا هو أنّنا لا نسعى إلى افتراض أسلمة الأديان، ولم نقل إنّ الهندوسية والبوذية والمسيحية واليهودية هي الإسلام، بل هي أديان مختلفة، ولكن القيم بينها مشتركة، والفضائل مشتركة، وحربها على الرذائل مشتركة، ولا يضير أبداً أن نبني بيننا أرقى درجات الإخاء والمودة ونحن نقول: {لكم دينكم ولي دين}.

- **الأدلّة من السُّنّة النبويّة المباركة**

لا بد أن نشير أولاً إلى أنّ النبي الكريم كان واعياً تماماً برسالة إخاء الأديان، وكانت في جوهر دعوته، وقد أوردت السيرة النبوية عدداً من الإشارات اللافتة لهذا المعنى، فقد تعرّف النبي الكريم إلى الراهب بحيرا قبل الإسلام، وسمع من ورقة بن نوفل، وعُرف عن الحنفاء العرب أمية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل وقسّ بن ساعدة الإيادي وغيرهم، وكان يذكرهم بالثناء الحسن، وكان يذكر باستمرار شريعة إبراهيم التي أمر أن يتبعها بنص الآية: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين}.

وفي إشارة لافتة منذ مطلع الرسالة فقد ترك الرسول الكريم التوجّه إلى القبلة في مكة، وتوجّه في صلاته إلى بيت المقدس، وهو أمر أثار تساؤلات كبيرة في مكة، وكانت الغاية بطبيعة الحال التأكيد على ما بين الإسلام وأهل الكتاب من المؤاخاة والمودة والتقارب في عبادة الله، وهو ما لم يكن موجوداً بين الرسول وبين قريش، ولا شك في أنها رسالة تقارب نبيلة، وقد استمر المشهد كذلك خمسة عشر عاماً حتى نسخ القرآن القبلة الأولى، وأمر بالتوجّه إلى البيت الحرام.

وعلى الرغم من أنّ أمر القبلة على رأس الثوابت في الدين، ولكنّ الشريعة نسختها مرّتيْن في سبيل ما هو أكثر رسوخاً ومقاصدية، وهو بناء إخاء حقيقي بين أتباع الأديان.

كما أنّ سيرة الرسول الكريم رسّخت بناء علاقات إيجابية مع النجاشي والمقوقس، وكلاهما ملك نصراني، فقد استقبل النجاشي الصحابة الكرام ووفّر لهم الحماية والأمن، وعاش الصحابة في كنفه أربعة عشر عاماً، وهو يدين بالمسيحية ومن حوله بطارقته وكهنته، ولكنه كان يبادل الرسول الكريم المودة والثقة والتراحم، وفيه نزلت آيات كثيرة تأكيداً على الإخاء المطلوب بين الأديان، ومنها هذه الآيات الكريمة[10]:

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ القصص: ٥١ – ٥٥

وفي الآيات تصريح واضح بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وتصريح واضح بأنهم المسلمون والمؤمنون، مع أنهم لم يتركوا دينهم الذي كانوا عليه، ولم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، ولم يحجّوا البيت.

[10] الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، ج19، ص593.

وقد أوردنا قبل قليل ما نزل في النجاشي عند موته من آيات كريمة[11]، نصّت على أنّه يدخل الجنة ويؤتى أجره فيها، مع أنّ الرجل مات على دينه الأول وكان يصلّي إلى بيت المقدس، وإن ظهر منه الإقرار والوفاء والمحبة للرسول والرسالة.

أمّا المقوقس، فقد راسله النبي الكريم وأوفد له حاطب بن أبي بلتعة، وكان من نتيجة الحوار تبادل الهدايا بينه وبين رسول الله، وقد قبل رسول الله هديته مارية القبطية وأعتقها وتزوّجها، ولقد كان هذا الود حرياً أن يستمر ويدوم، ولكن المقوقس كان في واقع صعب، وكان الصراع بين المسيحيين الملكانيين والقبط يلزم الرجل أن يتريث في بناء علاقات إيجابية مستمرة.

وكذلك فقد أسس الرسول الكريم علاقات طيبة مع سكان المدينة من اليهود، وهي القبائل الثلاث عشرة التي ورد ذكرها في وثيقة المدينة[12]، ولكن وقع للأسف خلاف سياسي خطير مع ثلاث قبائل منها وهي قينقاع أولاً والنضير ثانياً وقريظة ثالثاً، أما القبائل العشر الباقية فقد ظلت العلاقة جيدة، واستمرت إيجابية وبنّاءة إلى وفاة الرسول الكريم، حيث مات ودرعه مرهونة عند يهودي، وهو دليل واضح على التعاون التجاري والاجتماعي مع اليهود في المدينة.

وأمّا نصارى نجران فقد وفدوا على الرسول الكريم وحاورهم وناجاهم ودعاهم للمباهلة فأبوا، وقد أقاموا في مسجد الرسول أربعة عشر يوماً وهم يؤكدون التزامهم بدينهم الأول، ولم يتحوّلوا إلى شيء من الإسلام. وهناك رواية بالغة الأهمية في {**إنسان العيون**} لابن برهان الدين الحلبي أن القوم أرادوا الصلاة فمنعهم الصحابة، ولكن الرسول الكريم نهاهم عن ذلك، وأشار لهم بيده إلى جهة المشرق حيث يصلون، وهو دليل أنّهم كانوا من النصارى النساطرة الذين يصلون صوب الشرق[13]، وفي صلاتهم بالمسجد النبوي موقف متقدّم في إخاء الأديان، واعتراف بأكثر من سبيل للإيمان، وهذا المعنى ليس بعيداً من جوهر الوثيقة التي كتبها الرسول الكريم لنصارى نجران عقب انتهاء إقامتهم بالمدينة وعودتهم إلى نجران، وهي واضحة في إقرارهم بدينهم واعتقادهم، واحترام أساقفتهم ورهبانهم وحماية ممتلكاتهم، وفيها :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ لِنَجْرَانَ

لِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَأَنْ لَا يُغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ، وَلَا يغيّر أسقف من أسقفيته وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا وَاقِهٌ مِنْ وُقَيْهَاهُ وكلّ ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ دِنْيَةٌ

---

[11] انظر سائر التفاسير سورة آل عمران الآية 199، الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن ج7، ص497.

[12] السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف، ج4، ص242.

[13] البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ج5، ص382.

وَلَا دَمُ جَاهِلِيَّةٍ، وَلَا يُحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَمَنْ سَأَلَ فِيهِمْ حَقّاً فَبَيْنَهُمُ النِّصْفُ غَيْرَ ظَالِمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ...

وَعَلَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ جِوَارُ اللهِ عَزَّ وجل وذمة مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ أَبَداً حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ.

شَهِدَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَغَيْلَانُ بْنُ عَمْرٍو، وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ مِنْ بَنِي نَصْرٍ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَالْمُغِيرَةُ[14].

والصحيفة وثيقة هامة يلزم منها بطلان الدعوى المزعومة أنّ النبي أمر بإخراج النصارى من جزيرة العرب. فهذا إقرار لهم بالبقاء حماية حقوقهم وكنائسهم ورهبانهم وأساقفتهم، وهو عهد وعقد، وليس شريعة من جانب واحد حتّى يعرض لها النسخ والقيد، بل عقد مع القوم لا يحل التحوّل عنه إلاّ برضاهم وإذنهم، وما كان رسول الله غادراً ولا لئيماً، ولا يتصور أن يكتب لهم هذا باليمين ثم يأمر الصحابة بعد ذلك أن ينزعوه باليسار، وقد أجمع الفقهاء وكتاب السير أنّ نصارى نجران لم يخرجوا من بلدهم في عهد الرسول، بل في عصور متطاولة بعده، ويشير بعضهم إلى أنّه قرار عمر بن الخطاب وهو ما نستبعده لأسباب منهاجية سنأتي على شرحها بعد قليل.

ولا شك في أنّ عبارة الوثيقة تتجاوز كثيراً مبدأ التعامل الإيجابي إلى موقف الإقرار الديني باحترام ما يعبدون وحمايتهم وحماية كنائسهم، وهو موقف لا يمكن أن يصدر عن عقيدة أشعرية أو واسطية ترى الأديان كلّها ركاماً من ضلال، وتوجب الجد والسعي في إبطالها والإساءة إليها، وتجعل من أركان الدين الثابتة عقيدة الولاء والبراء.

وإضافة إلى هذه الإشارات الواضحة في إقرار مبدأ إخاء الأديان في السنة النبوية، فبإمكاننا أيضاً أن نسترشد ببعض النصوص من السنّة:

- «نحن معاشر الأنبياء أبناء علات أبونا واحد وأمهاتنا شتى»[15].
- «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم هو أخي وليس بيني وبينه نبي»[16].
- «من آذى ذمياً فقد آذاني»[17].

---

[14] القصة موجودة بتفاصيلها في سائر كتب السير، والنص بلفظه من: السيرة النبوية لابن هشام، ودلائل النبوة للبيهقي، وزاد المعاد لابن القيم، والسيرة النبوية لابن كثير، وكتاب الأموال لابن زنجويه، وما بين قوسين انفرد به البيهقي، وتجد ذلك في كتبهم في أخبار السنة التاسعة للهجرة.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد، ج3، ص550، والنص أيضاً في سيرة ابن هشام.

[15] رواه الإمام مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ج4، ص337.

[16] المصدر السابق نفسه.

[17] لم أجد لهذا الحديث أصلاً في كتب السنة، ونرجح أن اشتهاره على الألسنة إنما هو رواية بالمعنى للحديث التالي.

- «مَن ظلم معاهداً، أو انتقصه حقاً، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة[18]».
- «الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله[19]».

ومن المؤكد أنّه لن ينتهي الجدل بإيراد هذه الشواهد، لأنّ لدى الطرف الآخر ما يقابلها أيضاً، ويمكن أن نشير إلى طائفة من النصوص من السُّنّة النبوية ترفض مبدأ الإخاء بين الأديان، ومنها:

- «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم مات دون أن يؤمن بي إلا دخل النار[20]».
- «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله[21]».
- «سئل ﷺ عن عبد الله بن جدعان، وكان رجلاً كثير الخيرات فهل ينفعه ذلك؟ قال: هو في النار، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين[22]».

ومن أغرب النصوص التي يتم الاستدلال بها نص هلاك أبي طالب، فالرجل قدّم أشد الأعمال نبلاً ووفاء للرسالة والرسول، ولكنه كوفئ بعذاب شديد يوم القيامة، ويروون أنّ العباس سأل النبي ﷺ: هل أغنيت عن عمك أبي طالب فقد كان يحوطك وينصرك؟ فقال: «نعم، لقد وجدته في ضحضاح من نار، يلبس منهما نعلين يغلي منهما دماغه»!!!! وذلك بعد شفاعة النبي ﷺ، وهو أخف أهل النار عذاباً يوم القيامة!![23]

في الواقع لا أملك إزاء هذه النصوص إلا الاستغراب والعجب كيف تقبّل الرواة هذا وكيف أدرجوه في الحديث الصحيح، مع أنّ أدنى نقد للمتن ينبغي أن يرميه بالشذوذ والعلّة، فالوارد في هذا النص المزعوم تناقض تام مع عدالة الله وحكمته، ووصم له بالعبث، والتناقض تام بين هذه النصوص والنصوص القرآنية المثاني التي ورد بها القرآن الكريم: {ورحمتي وسعت كل شيء}، {إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، {لا إكراه في الدين}، {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}.

---

[18] السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، ج3، ص170.

[19] الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ج10، ص86.

[20] رواه الإمام مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، ج1، ص134.

[21] المصدر السابق، ج1، ص52.

[22] المصدر السابق، ج1، ص196.

[23] رواه الإمام البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ج8، ص46.

والحقيقة أنّ أكثر ما يستفزني حديث أبي طالب، ولا أدري كيف تمكّن الواضعون من إدراجه في كتب معتمدة، ومع أنّني أعتبر ضعف الحديث وقوّته مسألة موضوعية في الغالب تعتمد القواعد التي وضعها المحدث، ولكنّ هذا الحديث بالذات تفوح منه رائحة السياسة، وتمّ وضعه مكراً وكيداً بعلي بن أبي طالب، لإثبات بؤس نسبه وتقلّبه في أرحام الكافرين، وهذا عكس ما كان عليه رسول الله من ودّ أبي طالب وحبه والثناء عليه.

وقد ظهر من أبي طالب مواقف في الثبات والرجولة والمحبّة والشهامة في نصرة رسول الله كما لا يظهر من أحد، وهو القائل:

ولقد علمت بأن دين محمد*** من خير أديان البرية دينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم **** حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة*** أبشر بذاك وقرّ منه عيونا[24]

وحين هددته قريش بالمقاطعة والضغينة إن هو استمر في نصرة النبي قال:

كذبتم لعمر الله نُبزي محمداً *** ولما نُصاول حوله ونقاتل

ونسلمه حتى نصرع حوله *** ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه *** ثمال اليتامى عصمة للأرامل[25]

وهي مواقف في الإيمان تجاوز فيها كل أحد من وجوه العرب، وحين رأى ثبات رسول الله قال له: امض يا بن أخي حتى ينصرك الله فوالله لا نسلمك ولا نخذلك.

وقد واجه قريشاً كلها دفاعاً عن رسول الله، ودخل معه حصار شِعْب أبي طالب حتى أنهكه الجهد والجوع والأذى، ومات بعد رفع الحصار بثلاثين يوماً... وتاريخه كلّه صدق وإخلاص ووفاء.. ثم يحلو لهذا الراوي أن يتوعده بنار جهنم خالداً مخلداً فيها نصرة لتصوّر واهم.

ومن أعجب ما روي أيضاً أنّ رجلاً سأله كيف أغنيت عن أبي طالب وقد كان يحوطك وينصرك؟ قال: «نعم وجدته في النار فأخرجته منها إلى ضحضاح فيها يلبس نعلين يغلي منهما دماغه، وهو أخفّ أهل النار عذاباً»!!!!

---

[24] البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ج2، ص188.

[25] رواه الإمام البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح ج2، ص27. وانظر تتمة الأبيات في إمتاع الأسماع للمقريزي أحمد بن علي ج5، ص127.

وسبحان الله ... ألم يشعر أولئك الذين وضعوا هذه الرواية المتهالكة أنهم يسيئون إلى الله ورسوله ودينه، فيبرّرون البطش والظلم ونكران الجميل، نصرة لفكرة خاطئة؟

ثم ما هذه الشفاعة التي تذكرها الرواية وتنسبها لرسول الله من أنه شفع له فألبس نعلين من نار يغلي منه دماغه!!! فهل هي شفاعة أم استهزاء برسول الله؟؟؟ وهل هي كرامة أم إهانة؟؟ قليلاً من العقل يرحمكم الله!

والقول الفاصل في هذه الروايات أنّها أحاديث شاذة، والحديث الشاذ هو حديث رواه أهل الصحاح ولكنه خالف ما هو أشد منه صحة أو أقوى سنداً. وقد قدّمنا الآيات والأحاديث التي أصح من هذا وأوثق، مما يوجب حتماً الحكم بفساد هذه الروايات وشذوذها، ووجوب التمسّك بالمشهور اليقيني من الرواية التي تدل على رحمة رسول الله وحكمته وهديه، وهو ما يتحقّق بدقّة في هذه المرويات.

وبعد هذه الدراسة في المصادر النصية ننتقل إلى المصادر العقلية في الإسلام.

• الأدلّة من الإجماع

تشير هذه الدراسة إلى الإجماع الذي اعتبره علماء أصول الفقه مصدراً من مصادر التشريع الأصلية، ونحن نتّفق مع الأصوليين فيما اختاروه ولكننا نختلف عن السائد عند المشايخ من اعتبار الإجماع هو ما جرى في عهد الصحابة دون سواهم، أو أنّه إجماع الفقهاء وحدهم، وهو ما يعني في ذهنيّة الناس (رجال الدين).

والإجماع عند الأصوليين هو: اتفاق المجتهدين من هذه الأمّة في عصر على أمر[26]. والمشهور على حكم شرعي.

فهو بذلك يشترط اتفاق المجتهدين في عصر من العصور، ومعنى ذلك أنّ الحكم الصادر عن الإجماع يلزم عصره ولا ينسحب على كل العصور، أو بتعبير الفقهاء الإجماع ينسخ بمثله.

ولكن الفهم الحرفي لمنطق الإجماع مستحيل التحقق، بل جزم ابن حزم أنه لا يمكن أن يتحقّق إلا في عصر الصحابة قبل انتشارهم في الأمصار، ولذلك فقد تحول الفقهاء إلى صيغ أقلّ شمولية وذهب معظم الفقهاء إلى أنّ الأغلبية تقوم مقام الجميع، وأنّ اجتماع الناس على أمر في مصر يلزمهم ولا يلزم كل الأمصار، وفي هذا السياق اشتهر إجماع أهل المدينة وإجماع العترة وإجماع الفقهاء وإجماع المفسرين.

وعرّفه الإسنوي: هو اتفاق أهل الحل والعقد من أمّة محمد ﷺ على أمر من الأمور[27].

---

[26] الأصفهاني، أبو الثناء محمد بن عبد الرحمن، بيان المختصر شرح ابن الحاجب، ج1، ص521.

[27] الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، نهاية السول شرح منهاج الوصول، ص281.

ويمكن صياغة الإجماع بمفهوم زماننا: هو اتفاق الهيئة التشريعية التي فوّضت بالحل والعقد من وليّ الأمر الذي انعقدت له بيعة صحيحة في بلد من البلدان الإسلامية بالنظر في مصالح الأمّة، ووضع النصوص التشريعية اللازمة لمصالحها بما يحقق مقاصد الكتاب والسُنّة.

ووفق هذه الصيغة فإنّ إخاء الأديان متحقّق في (52) دولة إسلامية من أصل (57) حيث تنص الدساتير التي وضعتها الهيئات التشريعية، وصوّت عليها الجمهور في معظم الدول الإسلامية أنّ الدولة المسلمة مكلّفة بحماية الأديان وتوفير حاجات أتباعها من الكنائس والمعابد، وأنّه لا يجوز التفريق بين الناس بناء على أديانهم وأعراقهم وقوميّاتهم. وباتت هذه المواد منصوصاً عليها بصريح العبارة في كل دساتير العالم الإسلامي باستثناء السعودية وإيران فيما تفرض الصومال واليمن وموريتانيا بعض المواد التمييزية ضد الأديان.

إنّ إجماع الهيئات التشريعية في (53) بلداً إسلامياً على المساواة بين الأديان، واحترام ما اختاره الناس لأنفسهم من دين هو الشكل المنطقي لدليل الإجماع في العصر الحديث.

وهل تشتمل هذه الهيئات التشريعية على الفقهاء الموثوقين؟ والجواب بطبيعة الحال الإيجاب في معظم هذه الحالات، فهؤلاء المكلّفون بكتابة التشريعات هم في العادة أعلى الناس تحصيلاً علمياً في الفقه والقانون، ولا يسيء إلى الإجماع في شيء وجود أهل اختصاص في الاجتماع والقانون الدولي، بل هو شرط نجاحه وتحقق بصيرته، وكذلك وجود بعض المسيحيين أو العلمانيّين فهي خبرات تستأنس بها اللجان التشريعية في كل مكان، وكذلك كان التاريخ الإسلامي، وقد كان من روائع الحضارة الإسلامية مشاركة أهل الأديان فيها، وقد استعان الخلفاء دوماً بخبرات كبيرة من المسيحيين واليهود والصابئة في الخلافة العباسية بوجه خاص.

إنّ المشكلة التي نواجهها دوماً أنّ التعبير بالمجتهدين ينصرف دوماً في الذهنية العامة إلى رجال الدين، من الأئمة والواعظين، ولكن هؤلاء على سلامة مقاصدهم لا يمكنهم أن ينشؤوا التشريعات المتينة التي تحكم علاقة الأفراد بالدولة والدولة بمحيطها، وهي قائمة أساساً على العقود المبرمة في ظل القانون الدولي، وقد أمرنا بالوفاء بالعقود، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلاّ فيمن درس الفقه والقوانين الحديثة، وأجرى المقارنات الوافية، وهو شأن الفقهاء الراسخين في الشريعة والقانون، بغض النظر عن كونهم رجال دين واعظين، بل الشرط فيهم أن يكونوا من أهل الاستقامة، وهو ما تؤكده اللوائح دوماً في اختيار هذه الهيئات من سلامة السِجِلّ العدلي وتحقّق الكفاءة والنزاهة، وتوفّر قدراً كبيراً من الثقافة الرفيعة.

- **الدليل من القياس**

ومع أنّ الاستدلال بالقياس لا يكون إلاّ في غياب النص، والنص موجود وفيه تفاصيل أهل الكتاب، ولكننا بحاجة للقياس فيما يتصل بحكم الأمم التي لم تذكر في القرآن الكريم، وهذا بالضبط ما فعله الصحابة الكرام عند الحديث عن المجوس، حيث قال عمر بن الخطاب: سُنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب[28].

وقناعتي أنّ ما ذهب إليه عمر بن الخطاب في الحكم على المجوس، هو المنهج نفسه في الحكم على الهندوس والبوذيين وغيرهم من أهل الأديان، الذين ينبغي أن نسنّ فيهم سُنّة أهل الكتاب، وقد قال الله فيهم: {ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك}.

وهكذا فنحن نلحق فرعاً بأصله لعلّة جامعة بين الفرع والأصل.

وأهل الكتاب مصطلح قرآني حضاري، يمنح غاية الاحترام للآخر المختلف دينياً، فينسبهم إلى كتاب صادر عن الله، ويحترم ما لديه من علم وحكمة، ويدعوهم بصريح العبارة للحكم بما أنزل الله فيه: {وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون}، ويخبر كذلك عن التوراة: {إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار}.

وأحب أن أضيف هنا رأياً كنت قد شرحته في مقالات كثيرة، وليس هذا مقام البسط فيه وهو أنّ تحديد الكتاب المقصود لا ينبغي أن يقتصر على التوراة والإنجيل، بل هو إشارة إلى كل أمّة تنتظم أحكامها كتب وقوانين مقرّرة يتبعها الناس، والمقصود كل أمّة انتقلت من طور البداوة والفوضى إلى نظام الأمم ذات القوانين والمواثيق والأعراف الدولية، وكل أمة طوّرت تشريعاتها من الأعراف والعادات إلى القوانين والكتاب فهم أهل كتاب، وبات من الممكن أن ننشئ معها عقوداً وعهوداً واتفاقيات مصونة.

كذلك فإنّ آية: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم}، قد نزلت في الوثنيين المسالمين اتفاقاً[29]، وهي أصل يقاس عليه كل وثني وكل لا ديني وكل ملحد اختار لنفسه اعتقاداً ولم يقاتلنا في الدين ولم يخرجنا من ديارنا، وهذا ينطبق اليوم على كل أمم الأرض، من شعوب نبيلة كريمة أياً كانت أديانها، إلاّ الأنظمة الظالمة المستبدة التي تشرد شعوبها وتطردهم من أرضهم وفق بيان القرآن الكريم.

---

[28] المشهور أنها من كلام عمر، ولكن الإمام مالك نقل في الموطأ، وكذلك الشافعي في مسنده أنّ الحديث مرفوع من رواية عبد الرحمن بن عوف أنه قال: أشهد لسمعت رسول الله يقول: سنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب. مالك بن أنس، الموطأ، ج1، ص289.

[29] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، ج22، ص 572، وسائر التفاسير ذكرت ذلك وهي أنّها نزلت في الوثنيين من قريش ممن لم يحارب معها، انظر تفسير الآية 8 في سورة الممتحنة.

ويتعيّن في البشرية كلها مهما كانت ديانتها أن تعامل بالبر والقسط، وهما مصطلحان يكفيان لقبول كل مواثيق الأمم المتحدة الداعية إلى وقف التمييز بسبب الأديان، وتوجب دخول الأمة الإسلامية في عقد حقوق الإنسان الذي ينص على حق كل إنسان في اختيار دينه ومعتقده بحرية تامة، وهو مضمون الآية أيضاً: {لا إكراه في الدين}.

- **الدليل من الاستحسان**

ويستدل السادة الحنفية بالاستحسان مصدراً رئيساً من مصادر الشريعة. والاستحسان هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس[30]، أو هو العدول عن قياس جليّ إلى قياس خفي لحكمة يراها المجتهد[31]. وفي تعبير أكثر واقعية، فالاستحسان هو دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه[32].

ولا بأس أن نتوسّع في تعريفات الاستحسان فإنّه من أبرز وسائل التشريع في الفقه الإسلامي، وهو الأَصل الذي انطلقت به حركة التطور التشريعي في الإسلام، وليس صحيحاً أنه اختيار الحنفية وحدهم بل إنّ سائر الفقهاء أخذوا به في معاني متعددة، حتى الإمام الشافعي على الرغم من اعتراضه الشديد على أبي حنيفة في كتابه **(إبطال الاستحسان)**، ولكنه أخذ به في عدد من المسائل وسمّاه استحساناً. ومن التعاريف المتميزة للاستحسان: الاستحسان هو كل دليل في مقابلة القياس الظاهر من نص أو إجماع أو ضرورة[33]، وكذلك في تعريف آخر: الاستحسان هو تخصيص العلة. وقال قوم: هو ترك الطريقة المطّردة لطريقة غير مطردة لأمر يختص بذلك الحكم. وقال قوم: هو ترك القياس لدليل أخفى منه، وقال القاضي الصيمري: هو العلمُ بالشيء على الوجهِ الذي يكون حسناً، والاستقباح هو: العلمُ بالشيء على الوجهِ الذي يكونُ قبيحاً[34].

ولا شك في أنه سينتج عن الاستحسان ترك كثير من ظاهر النص في الكتاب والسُّنّة، والناس يعتبرون ذلك كبيرة فاحشة، والحقيقة أنّها سياق طبيعي للوعي بمقاصد الشريعة وقد مارسه سائر الفقهاء بدون استثناء، فلا يوجد عالم إلا وقد خالف من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام أدلة كثيرة، ولكن لمعارض راجح عليها عند مخالفها [35].

---

[30] السرخسي، شمس الأئمة، محمد بن أحمد، المبسوط، ج10، ص145.

[31] الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ج2، ص181.

[32] المصدر السابق نفسه.

[33] البخاري الحنفي، محمد أمين بادشاه، تيسير التحرير، ج3، ص139.

[34] ابن عقيل، أبو الفداء علي بن عقيل، الواضح في أصول الفقه، ج2، ص102.

[35] الرجراجي، الحسين بن علي، رفع النقاب عن تنقيح الشهاب، ج6، ص2017م

وفي هذا السياق فإنّ الفقهاء لا زالوا يأخذون بالاستحسان مصدراً للأحكام الشرعية، وهو اجتهاد في مورد النص، وهو أكثر المصادر إعمالاً من الناحية الواقعية خلال التاريخ الإسلامي، وتطبيقاته أكثر من أن تحصى، ويمكن القول: إنّ القوانين الحديثة اليوم في الاقتصاد والمرور والنقل وغيرها قائمة على الاستحسان والمصلحة المرسلة.

ويتعيّن الذهاب إلى الاستحسان في تأويل النصوص التي وردت بوجوب القطيعة مع الأديان وبغض أتباعها، وهي نصوص وردت في سياقات خاصة، في غياب قانون دولي ومعاهدات محمية، وقد انتهى ذلك مع الزمن حيث باتت الدول الإسلامية اليوم تلتزم بمعاهدات واضحة وصريحة لجهة حماية الأديان، وتوفير حقوقها وحقوق أهلها في العيش الكريم.

والاستحسان الذي هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس، أو بتعبير أوضح ترك حكم النص لمصلحة راجحة، واضح في وجوب التحول إلى بناء علاقات إيجابية مع أهل الأديان، لما في ذلك من مصلحة أكيدة للأمّة، ولما يقتضيه العقل والعدل من التعامل مع الناس بالمساواة والعدل، وخاصّة بعد أن توقّفت الحروب الدينية التي كانت تفرض موقفاً تربّصياً من الأمم بعضها ببعض.

ووفق التعريف الشائع للاستحسان بالعدول عن القياس الجلي إلى القياس الخفي، فإنّ القياس الجليّ هو قياس الهندوسية والبوذية على الوثنية القرشية بجامع العلة المشتركة بينهما، وهي عبادة الأصنام، وهذا هو القياس الجلي، ولكن اختلاف الظروف التقديرية يُحْوِجُك إلى الأخذ بالقياس الخفي، وهو القياس على أهل الكتاب وما ورد في حسن التعامل معهم وتبادل الثقافة والحكمة معهم، وهذا هو القياس الخفي، وأمّا العلة التي رجحت هذا العدول فهي ظاهرة، وهي أنّ هذه الشعوب هي اليوم مئات الملايين من البشر، ولهم مصالح مؤكدة مع المسلمين، ولم يجاهروا بالعداوة للمسلمين، وتنصّ قوانينهم على احترام المسلمين، ومنحهم الحق في بناء معابدهم والإشراف عليها والدعوة إلى الدين الإسلامي، وهذا كله يجري اليوم في الهند والصين، حيث يعيش أزيد من أربعمئة مليون مسلم، ويقيمون الصلاة في أكثر من نصف مليون مسجد تحميهم القوانين ... فهذه الأسباب كلها موجبة للعدول عن القياس الجلي إلى القياس الخفي، وبناء أفضل العلاقات بين المسلمين والهندوس والبوذية على الأساس الذي بنيت عليه علاقات المسلمين مع أهل الكتاب.

ومن الواجب أن نشير هنا إلى أنّ هذا التسامح المنصوص عليه في القوانين تجاه الأديان ليس مثالياً، فالواقع يكذّبه في كثير من الأحيان. وعلى سبيل المثال ففي الهند نزاعات ضارية بين المسلمين والهندوس لأسباب سياسية محض، وقد تعاظمت حمّى الصراع في أعقاب هدم المسجد البابري وبناء معبد هندوسي فوق ركامه، وفي بورما يعاني المسلمون من أقلية الروهينغا مظالم قاسية من فريق من البوذيين، فيما يعاني الإيغور المسلمون من مظالم وتمييز شديد تمارسه الحكومة الصينية ضدّهم.

على أنّ هذه المظالم المؤلمة تواجه باستمرار اعتراضاً شجاعاً من قيادات هندوسية وبوذية ترفض ذلك بحق المسلمين، وتؤكد أنّ هذه الممارسات مرفوضة في الديانة، وأنّها مظهر من مظاهر تشويه قيم التسامح والرحمة في هذه الأديان، وأنها تشبه التطرف الذي يظهر بين الحين والآخر في المجتمعات الإسلامية، ويتبرّأ منه المسلمون.

- **الدليل من المصالح المرسلة**

تقوم المصالح المرسلة عند الإمام مالك على حق الأمّة في التشريع في المسائل التي لم يرد فيها دليل حاضر ولا دليل آمر، ذلك أنّ المصالح في الإسلام ثلاثة مصالح معتبرة ومصالح ملغاة ومصالح مرسلة، فالمعتبرة ما أمر بها النص والملغاة ما نهى عنها النص والمرسلة ما سكت فيها النص.

والمصالح المرسلة هي منفعة لم يشهد الشرع لاعتبارها ولا لإلغائها بدليل خاص[36].

ومن المؤكد أنّ النص قرآناً وسُنّة قد سكت تماماً فيما يخص الأديان إلاّ ما كان في جزيرة العرب من النسطورية المسيحية واليهودية، وليس في القرآن ولا في السُّنّة شيء من أمر الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية والبوذية والهندوسية والسيخية وغيرها من الأديان، وقد وردت نصوص عامة في أنّ الأنبياء بعثوا في كل أمة، وإنّ ما من أمّة إلاّ خلا فيها نذير، وأنّ الله لم يقصّ علينا كل أخبار الرسل ومنهم من لم نقصص عليك، وهكذا فإنّ الفقيه المجتهد يمكنه النظر في بناء الإخاء والعلاقات الاجتماعية مع الأديان المذكورة على أنّها رسالات لرسل لم يقص الله علينا أخبارهم، والمدار في الحكم عليها هو المصلحة المرسلة.

على أنّ النص الوارد في الكتاب والسنّة بشأن اليهود والنصارى قد منحهم مكان أهل الكتاب، وهو مكان مميّز يختلف تماماً عن مكان الوثنيين من عابدي الأصنام، ووفق هذه القراءات فقد اختلفت الأحكام اختلافاً بيّناً بين منظومة أهل الكتاب ومنظومة المشركين.

ولا شك في أنّ المصلحة المرسلة في هذا الباب تتطلّب النظر بشكل عملي في مصالح الأمة الحقيقية المعتبرة في التعامل مع الأديان، وهل مصلحة الأمّة الحقيقة في التمييز بين الأديان، وإنصاف أهل الإسلام واضطهاد أهل الأديان، ولا يخفى على عاقل أنّ اضطهاد أهل الأديان مناف لعدالة الله وللقانون الدولي، وسيؤدي إلى إلحاق أذى كبير بمصالح الأمّة الحقيقة مادياً ومعنوياً.

[36] الجيزاني، محمد حسين، سنّة الترك ودلالاتها في الأحكام الشرعية.

والاضطهاد هنا لا يراد به قتلهم أو ضربهم أو إهانتهم، بل مجرّد التمييز ضدهم، ودفعهم للجزية عن يد وهم صاغرون، فهو اضطهاد وكذلك إهانة كتبهم واعتقادهم ومنعهم من إقامة شعائرهم الدينية بكل راحة وطمأنينة.

إنّ أي قراءة في مصالح الأمة المرسلة تلزم الأمة بتوقيع الاتفاقيات الدولية الداعية إلى حماية أبناء الأديان، وتوفير الحرية الدينية لجميع الناس، وبذلك تبقى الأمة الإسلامية في كنف الأسرة الدولية، ولا تحجب عن رعاياها حقوق المسلمين الناشئة من تبادل المصالح والمنافع مع المجتمع الدولي، وتوفير الحاجة والأمن للمجتمع برمّته.

- **الدليل من سدّ الذرائع**

ويعتبر سدّ الذرائع أحد المصادر الرئيسية في الفقه الإسلامي لتشريع الأحكام، وقد أخذ به بشكل خاص الإمام أحمد بن حنبل.

وقد عرّفه الإمام ابن القيم: وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف، فإنّه (أي التكليف) أمر ونهي، والأمر نوعان: أحدهما: مقصود لنفسه، والثاني: وسيلة إلى المقصود، والنهي نوعان: أحدهما: ما يكون المنهيّ عنه مفسدة في نفسه، والثاني: ما يكون وسيلة إلى المفسدة، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين[37].

وسدّ الذرائع هو إغلاق ما ظاهره مباح خشية الوقوع في محظور، وها هنا تنطبق المسألة سياقاً وسباقاً، فإنكار حق أبناء الديانات في التديّن وبناء المعابد والامتناع عن التوقيع على معاهدات حقوق الإنسان سيوفر ذريعة كاملة للإساءة إلى الأمة الإسلامية برمتها، ومعاملتها معاملة الأمم المارقة، وتحريض تلك الأمم على منع المسلمين من ممارسة شعائرهم في البلاد غير الإسلامية، والتضييق عليهم وفق مبدأ المعاملة بالمثل.

وسيؤدي ذلك من جانب آخر إلى تعثر سير البلاد في طريق النهضة والتعاون مع المجتمع الدولي، ويعلم الخبراء الاقتصاديون كم سيكلف الأمة الإسلامية هذا العناء الكبير، الذي هو في الأصل موقف يتناقض تناقضاً تاماً مع عدالة الله وقسطه ورحمته.

كما أن المواقف التي تبنّتها الدول المتشددة حيال الديانات من منع بناء الكنائس والتضييق على غير المسلمين أدت إلى نتائج عكسية تماماً، حيث زرعت الشكوك باستمرار لدى الناشئة من غياب العدالة في

[37] ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقّعين، ج3، ص159.

جوهر الدين، وإكراه الناس على الإيمان، وهو ما أدى إلى الحيرة والشكوك، ومن جانب آخر فإنّ القمع كان ذريعة لاشتداد الحرب ضد المسلمين واتهامهم بالظلم والتمييز.

وكما نستدل بسد الذرائع لدرء الأذى عن المسلمين فإنّنا نستدل بفتح الذرائع لجلب الخير للمسلمين، حيث بات من المؤكد أنّ إقدام الأمة على تحقيق مزيد من الانفتاح، وتشريع القوانين المتسامحة والمتراحمة، واستقبال الجاليات من الأمم بإنصاف وعدالة سيفتح باباً نافعاً للأمة، وسيعود على نهوضها وازدهارها بأفضل النتائج، وهو الحال الذي أفادت منه الدول الإسلامية المنفتحة، حيث صارت محلاً لازدهار الاقتصاد والتبادل التجاري والثقافي والأكاديمي، وهذا كلّه مصلحة حقيقية للأمة.

- **الدليل من الاستصحاب**

وقد أخذ الإمام الشافعي بالاستصحاب دليلاً، ومعناه بقاء ما كان على ما كان، فما انقطع الحكم فيه لزم استصحاب الأصل فيه.

ويظهر الاستدلال بالاستصحاب حين يتأكد أنّ الأمم الحديثة كلّها غير مذكورة في الكتاب والسُّنّة، وأن لا وجه لقياس ظاهر النصّ في أمم آفلة على أمم وافدة، فهو قياس مع الفارق، وهو قياس غير مستقيم، وهاهنا يتعين استصحاب الحكم الأصلي، وهو براءة الذمّة، وهو هنا محلّ نزاع.

فالحكم في الأصل على تكفير الوثنيين والمشركين، والقياس وجوب بغضهم وقتالهم، كما أنّ الحكم في الأصل هو براءة ذمّة الناس، وهو أصل لا ينتقض إلا ببرهان، والحق أنّ الأمر يحتمل استصحاب كل من الأصلين، ولكن يتعين اختيار أحدهما لمنع إقرار الشيء ونقيضه، وها هنا فإنّه يتعيّن علينا الأخذ ببراءة الذمة استصحاباً حيث لا يستقيم القياس مع الفارق على الوثنيين، والفارق هنا هو أنّ الوثنيّين في قريش حاربوا الإسلام، وهموا بقتل النبي، ومنعوا إسلام أحد من أهل مكة وغلبوهم على أمرهم، فيما تقوم هذه الدول اليوم باستقبال المسلمين، والإذن بفتح المساجد المدارس الدينية، وتمكين الناس من عباداتهم وشعائرهم، وعليه فإنّ استصحاب الحكم ببراءة الذمة أولى من استصحاب الحكم ببغض المشركين.

ويتعين هنا أن يكون النظر في العلاقات مع هذه الأمم قائماً على تقدير العدل والقسط، واستصحاب الأصل المنصوص عليه في القرآن الكريم من سلامة الفطرة، واستقرار روح الله تعالى في الإنسان استصحاباً لما ورد في النص العزيز من وجود روح الله تعالى في الإنسان وانبثاقه عن فطرته، وهو ما تؤكّده آيات كثيرة في القرآن، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وبناء عليه فإن شأن المسلم أن يحترم كل ذات نفخ فيها الرحمن من روحه، وفي هذا المعنى يقول ابن عربي: ولن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر جميع الخلائق.

وإذ أضع القلم في بسط هذه الأدلة فأنا لا أجهل أنّ كل دليل قدمته قد يعرض له دليل يخالفه، وهي طبيعة الأشياء، فالقرآن الكريم حمَّال أوجه، وكذلك السُّنّة المشرّفة، ولكنني قصدت أن يعرف المسلم أنّ مصادر التشريع في الإسلام هي أوسع من الكتاب والسُّنّة وكثير منها عقلي محض، وقد التزم الفقهاء اتباعه خلال التاريخ، ونجحوا في ابتكار الحلول الناجحة لكل ما واجههم، وأنّ هذه المصادر منتجة، قادرة على أنّ توفير الدليل لكل استنباط فيه مصلحة الأمة.

أما أولئك الذين يرون أنّ هذه المصادر قد ختمت أيضاً وأنّها مقصورة على ما استنبطه القدماء، ولا يصحّ الاستدلال بها إلا فيما استنبطه السابقون، وأنّها غير صالحة لإنتاج أحكام جديدة فهؤلاء لن يقبلوا استنباطنا هذا، وسيعتبرون أننا نلوي أعناق المصادر كما لوينا أعناق النصوص.

ونبسط هنا أربعة أدلّة عقلية أخرى مؤيدة بنصوص من الوحي في مسألة إخاء الأديان، وهي تأمّلات عقلية وبرهانية دعت إليها نصوص الوحي المبين، وأكدتها الروايات المختلفة، ولكن لم يدرجها الفقهاء عادة في سياق إخاء الأديان، وإعذار المختلف في الدين والمذهب، مع أنّها أعظم الأدلة على نبل رسالة إخاء الأديان وكرامة الإنسان وطهر مقاصدها، وقد اخترت ترتيبها في خمسة عناوين:

- مبدأ الفطرة.
- مبدا الفترة.
- مبدأ العدل الإلهي.
- مبدأ رسالة آدم.
- مبدأ عيال الله.

الإمام البيروني

البيروني...

إخاء الأديان وكرامة الإنسان...

أبو الريحان البيروني (362–444 هجرية) كان أبرز علماء الدولة الغزنوية، التي سـيطرت على الخلافة العباسية. كان يتقن سبع لغات، وهو أول من شرح دوران الأرض حول محورها، ويعتبر من أعظم العقول عبر التاريخ...

أما الجانب الأهم من حياته فهو موقفه من أديان الهند، فقد كلفه السـلطان محمود الغزنوي أن يزور الهند ويتعرف إلى فلسفتها، وبعد سنوات عديدة أمضـاها في الهند تعلم فيها اللغة السنسكريتية، كتب رؤيته في أديان الهند في كتاب خاص بعنوان **(تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة)**... وكان مدهشـــاً أنه أكد أن الأصـــل في العقيدة عندهم هو التوحيد، وأن المثقفين منهم لا يعرفون خالقاً ولا رازقاً إلا الله، وأن جوهر فلســفة الهند هي الإيمان، وأكد أنّ الاعتقاد لدى حكماء الديانة الهندوســية يتجه إلى التوحيد، فيما يرتع العامة بالتعدد والشرك وعبادة الأيقونات!

وفي عبارة دقيقة يكتب البيروني شـارحاً المعتقدات الهندوسـية بقوله: «واعتقاد الهند في الله سـبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء».

ومن النصــوص الســنسـكريتية أدهش البيروني العالم بالكشــف عن التوحيد في عقيدة الهندوس، عرفاناً صـوفياً خالصـاً، الله طاهر، وغير متجسد، ولا صـورة له، وهو واحد أحد لا ثاني له، ولا يمكن رؤيته ولا تجسيده وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

وأشــار البيروني إلى أن حكماء الهند يقفون بجلال وهيبة أمام حضــرة الله تعالى، ويســمونه البراهما، ولا يقدمون له أي وصـــف أو تمثال، ويقولون: نحن أقل من أن نتوجه إليه وهو أكبر من أن يصـــغي إلينا، والعجز عن الإدراك إدراك، والبحث في ذات الله إشراك..

وفي عبارة دقيقة يكتب البيروني شـارحاً المعتقدات الهندوسـية بقوله: «واعتقاد الهند في الله سـبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء». [38]

وفيما يلي نصوص من الفيدات والأوبانيشادات في وصف الخالق، الإله الأعلى

- «لا صورة له» [3/32 ، yajurveda]
- «هو طاهر وغير متجسد» [8/40 ، yajurveda]
- «اهدنا الصراط القويم واغفر الذنوب التي تجعلنا نضل ونضيع» [16/40 ، yajurveda]
- «أيها الأصدقاء لا تعبدوا سواه، القدوس، ادعوه هو وحده» [1 /8 ، Rigveda]
- «واحد أحد لا ثاني له» [2/6 ، Chandogya]
- «لا والدين له ولا سيد فوقه» [9/6 ،Shvetashvatara]
- «لا يمكن رؤيته ولا تجسيده». [39] [9/4 ،Shvetashvatara]

[38] البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذول، عالم الكتب.

[39] قمنا بتحديد النصوص من مصدرها الأصلي في الفيدات الهندوسية باللغة الإنكليزية وأشرنا إلى مواضع ورودها.

ثم ينقل البيروني صفة الله عندهم عن كتاب من كتبهم يسميه **(باتنجل)**: «وهو وإن غاب عن الحواسّ فلم تدركه فقد عقلته النفس، وأحاطت بصـــفاته الفكرة، وهذه هي عبادته الخالصـــة، وبالمواظبة عليها ينال السعادة؛ فهذا كلامهم في هذا الكتاب المشهور»[40].

وتحدث البيروني ببالغ الاحترام عن الصـــابئة الحرانية، وقال في كتابه **(الآثار الباقية في الأمم الخالية)**: الصابئة أناس يوحدون الله وينـزهونه عن القبائح، كقولهم: لا يحد، ولا يُرى، ولا يظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً.

وأفرد في كتابه تفســـيراً مختلفاً لعقيدة النصـــارى في الأب والولد، وتحدث عن أثر اللغات في تغير المصـــطلح، وأن الأبوة هنا أبو الكل: أصـــعد إلى أبي وأبيكم، وأظهر إنصـــافاً غير معتاد أبداً في حوار الأديان في تلك المرحلة من التاريخ...

وبمثل هذا تحدث عن الديانة الزرادشـــتية والبوذية واليهودية، وكان مدهشـــاً في روايته لأقوال الأديان بكل احترام، فكان يظهر أجمل ما في هذه الأديان ويلتمس لأصـــحابها المعاذير، في حيادية مدهشـــة لم يكن العالم يعرفها آنذاك...

كان أبو الريحان يرى أن الأديان كلها تدل على الله، {ولله المشـــرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}، وأن على الأديان أن تدرك أنها صـــادرة من ذات واحدة، وأن على أتباعها أن يتعاونوا في القضـــاء على الفقر والتســـول والمرض والظلم، وأنه يجب وقف التبشـــير القائم على تســـخيف دين الآخرين، وتشـــويه أنـــــــــــــــبـــــــــــــــيـــــــــــــــائـــــــــــــــهـــــــــــــــم..

لقد ألزم البيروني نفسه أن لا يُقحم نفسه في خطاب حجاجيّ قائم على ثنائية الحق والباطل والنور والظلام والهدى والزيغ، وأكد أن ذلك شأن الانفعاليين وليس شأن العلماء الموضوعيين.

لقد تحدث عن الأديان باحترام بالغ، واعتبرها إلهية المصـــدر، وأكد دور الإنســـان في تطورها واســـتكمالها، ورسم صورة جميلة للمانوية واليهودية والهندوسية، وهذا قدر من الإنصاف لا تعرفه الأمم التي ظلت تتقاتل بعد البيروني ألف عام لإثبات صحة عقائدها.

حين تقرأ عبارات البيروني في الأمم والأديان تسمع في ثنايا خطابه: أمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم، ونبي بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء، ودين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان.....

الحلاج

[40] البيروني، أبو الريحان، تحقيق ما للهند، عالم الكتب، ج1، ص21.

الحسين بن منصور الحلاج، صاحب الطواسين (244–309 هجرية) عاش ومات في العراق.

قد يكون الحلاج الفريد من المشـاهير الذي تم قتله بالفعل بتهمة الردة، فليس صـواباً أنّ القتل بالردة كان شائعاً، بل كان نادراً، ولم يقتل أحد بالردة إلا ووراء الحكم قدر غير قليل من السياسة، والحلاج نفسه كان متهماً بتأييد الإسـماعيلية والدعوة للرضـا من آل محمد، وهي تهمة كانت تكفي لوصـمه بالقرمطية وقتله، صحيح أنّ الأئمة الفلاسفة قد تم تكفيرهم في عصور لاحقة، ولكنهم في الواقع عاشوا وزراء مكرمين كابن المقفع وابن سـينا والبيروني والفارابي والسـهروردي وابن طفيل وابن باجه وابن رشـد ولسـان الدين ابن الخطيب، وقد تغيرت عليهم الأيام بتقلبات السـياسـة ومكرها، ولكن من غير الواقعي أن نقول إنهم قد حوكموا بالردة أو أعدموا فيها.

يبقى الحلاج فريداً في هذا الموقف، مع تسـليمنا بأن آخرين تعرضـوا لهذا اللون من العقاب، ولكن لم نجد من المشاهير من أعدم بتهمة الردة إلا وله موقف سياسي استفز السلطان وأغضبه، فسخر في سبيل ذلك فتاوى التكفير.

ويمكن القول: إن الحلاج قد بنى موقفه من وحدة الأديان تأسـيسـاً على مذهبه في التسـليم لله وإسـقاط التكليف بإسقاط الإرادة، فالله وحده هو من اختار للناس معارفهم ومواقعهم ومصائرهم وعقائدهم ومآلاتهم، ومن غير الواقعي بناء على هذا الموقف أن يكون التفاوت في الحسـاب يوم القيامة مبنياً على أديان الناس، فهي ليست اختيارات العبد بل هي إرادة المعبود وحده، وهو ما كان يشرحه في البيتين الشهيرين:

* ما يفعل العبد والأقدار جارية *** عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له *** إياك إياك أن تبتل بالمـاء[41]

---

* سبحان من أظهر ناسوته *** سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهراً*** في صورة الآكل الشارب

حتى لقد عاينه خلقه *** كلحظة الحاجب بالحاجب[42]

وننقل عنه بعض ما روي في موقفه من إخاء الأديان:

[41] الحلاج، الحسين بن منصور، ديوان الحلاج، تحقيق د. سعدي ضناوي، ص26.

[42] عيون السود، باسل، ديوان الحلاج، ص19.

قال الحلاج: «يا بني الأديان كلها لله. شـــغل بكل دين طائفة لا اختياراً فيهم بل اختياراً عليهم. فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم انه اختار ذلك لنفسه". [43]

واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة، وأسام متغايرة، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف». ثم أنشد:

تفكرت في الأديان جداً محققاً *** فألفيتها أصلاً له شعب جما

فلا تطلبن للمرء ديناً، فإنه *** يصدّ عن الوصل الوثيق، وإنما

يطالبه أصل يعبر عنده *** جميع المعالي والمعاني فيفهما[44]

وأما الجحيم فلم يكن الحلاج يقرؤها على الصورة التي يقدمها الفقهاء، ولم تكن تعني له ناراً {كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب}، بل كانت تعني عنده الفناء في الله، والاســتغراق في وصــاله، وقال:

وكل مآربي قد نلت منها *** سوى ملذوذ وجدي بالعذاب[45]

وعلى الرغم من أن إعدام الحلاج كان بـأمر من الخليفة المقتدر، ومكر من الوزير حـامد بن العبـاس، وشـــهود عدد كبير من الفقهاء والمشـــايخ، ولكن طائفة غير قليلة من الفقهاء كانوا يتحدثون عن الحلاج كواحد من أعظم أئمة الإيمان، ومنهم الشـبلي وابن الخفيف وابن عطاء الله السـكندري، ونصـر الحادب والواسطي والنصرابادي الذي قال: إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج بلا ريب.

وسيبقى الحلاج لغزاً في تاريخ التفكير في الإسلام، ولا تزال الآراء فيه في غاية التناقض، ولكنني لا أتردد في القول: إن يوم صـلب الحلاج كان يوماً أسـود مشـؤوماً في تاريخ الحضـارة الإسـلامية، وإن إعادة الاعتبار للحلاج مسـؤولية تاريخية، وهو بحق أشـهر الرجال الذين صـلبوا بسـبب أفكارهم وحريتهم في الاعتقاد.

الفصل الثالث: إخاء الأديان في تراث الأديان

غالباً ما نواجه في سـياق حديثنا عن إخاء الأديان باعتراض وجيه، وهو أننا نجهد أنفسـنا لإثبات وجوب بناء الإخاء بين الأديان، ولكن الآخر المختلف لا يقبل بهذا الإخاء ولا يرضاه، وهو يعاملك بريبة وازدراء،

---

[43] عيون السود، باسل، ديوان الحلاج، ص29.

[44] المصدر السابق، ص55.

[45] قاسم، محمد عباس، الحلاج الأعمال الكاملة، ص50.

ولا يؤمن بك لا نبوة ولا رسـالة ولا شـريعة، فما معنى هذا الحب من طرف واحد؟ وما معنى التزلف إليهم وقد أخبر القرآن الكريم: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}.

ولا بد أولاً أن نجيب عن الآية الكريمة، فنحن أولاً لا نبحث عن رضا اليهود ولا عن رضا النصارى، وإنما نبحث عن رضا الله الذي أمرنا بنشر المحبة بين عباده.

وثانياً إن هذه الآية هي إحدى الآيات التي أوردها القرآن الكريم لبيان أمراض الأمم وانحرافاتها وهي تحكي ما انحرف إليه الوعي اللاهوتي لدى النصـــارى واليهود من احتكار الحقيقة، ويعلم كل عاقل أن القرآن يحذرنا من هذا الفهم القاصـر، ومن الواضـح أننا وقعنا فيه وبتنا لا نرضـى عن اليهود ولا عن النصـارى حتى يتبعوا ملتنا، وقد اتبعنا في ذلك سـنن من قبلنا شـبراً بشـبر وذراعاً بذراع، ودخلنا معهم جحر الضـب الذي دخلوه.

ولا شك في أن الديانات عموماً تقوم على احتكار الخلاص، وأن النصوص المؤسسة عادة ما تتحدث عن اختصـــاص الله تعالى لهذه الملة بطريق النجاة والخلاص، ودعوة الناس للدخول في هذا الهدى لتحقيق السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وهذا القدر من الوعي موجود في معظم الأديان، وفي كل ديانة يمكن أن تجد هذه النصوص، وهي بالعادة مادة ضـــرورية لرجال الدين في كل ملة لتأمين الحماســـة الكافية للدعوة إلى الدين، والأســـباب الموجبة لاعتناق الديانة دون سواها.

ويمكننا القول مع عبد الرحمن الحاج أن كل دين يعتقد بأنه يمتلك الحقيقة وحده، فالخلاص (بحســـب المصـطلح المسـيحي واليهودي) والنجاة والفلاح (بحسـب المصـطلح الإسـلامي)، أو التنوير (بحسـب المصـطلح البوذي) هو وقف على أتباع هذا الدين دون غيرهم، أما هذا الغير فيكون مصـيره إلى العذاب، ويتجاوز هذا الاعتقاد غالباً التعارضـــات الدينية إلى التعارضـــات المذهبية بين أتباع الدين نفســـه، بين الكاثوليكية والبروتستانتية في المسيحية، وبين الماهايانا والهنايانا أو الثيرافادا في البوذية، والشيعة والسنة في الإسلام، الأمر الذي يزيد التعددية الدينية تعقيداً[46].

ولكن من المؤكد أن قد ظهر في الأديان كافة، كما رأينا في الإســـلام، مفكرون أحرار يدعون إلى الإخاء الإنساني ويرون في الإخاء بين الأديان مدخلاً لبناء الحياة السعيدة واستجابة لإرادة الخالق في بناء أسرة إنسانية واحدة، تكون فيها الأديان على اختلافها أبواباً للوصـول إلى الخير الإنساني والتواصـل مع المولى سبحانه.

[46]الحاج، عبد الرحمن، مقال منشور في مجلة الملتقى للإبداع والتطوير بتاريخ 2008/2/23م.

ومع ذلك يمكن القول: إن ظاهرة امتلاك الحقيقة واحتكار الخلاص أشـــد ما تكون ظهوراً في الإســـلام والمسـيحية والسـيخية والزرادشـتية والشـوندوية والرسـتفارية، فيما تخفت في اليهودية والهندوسـية والبوذية، ولكنها لا تكاد توجد في الديانات الأخرى كالكونفوشـــية والطاوية والشـــنتو والبهائية والكاودائية والتنريكو والأوموتو.

كما يجب القول: إن الحديث عن الديانات نصـوصـاً وطقوسـاً لا يعبر بالضـرورة عن فكر الشـعوب التي تنتمي إليها، فلم يعد خطاب الكهنة يمثل المســـيحيين واليهود والهندوس والبوذيين، كما أنه لم يعد خطاب المشـــايخ يمثل المســـلمين بل بات لهذه الشـــعوب وعي مختلف، قد يبادل لاهوته الاحترام والتقدير، ولكن السواد الأعظم من هذه الشعوب بات يحمل فكراً نقدياً وشكّياً باللاهوت التقليدي.

وحين نتوجه إلى الإخاء بين الأديان فنحن لا نقصد فقط طبقة الكهنة ورجال الدين، مع أننا نبحث أولاً عن خطابها وأدبياتها، ولكننا نقصد الوصول بخطاب التسامح والإخاء إلى تلك الشعوب العريضة، سواء كانت تلتزم طقوسها وتستمع إلى كهنتها كما هو حال المتدينين منهم، أو تلك الأغلبية التي لا تقيم وزناً للاهوت ولكنها في الوقت نفسه لا تخرج من عباءة انتمائها إلى دين الآباء والأجداد.

وفي الفصـــل التالي ســـنعرف بمواقف الديانات المختلفة من احتكار الحقيقة والخلاص ومدى اســـتعدادها لإخاء الأديان، ثم نجتهد أن نقدم هنا المحاولات التي قدمها حكماء معروفون في الديانات الســـماوية الأساسية نحو إخاء الأديان.

- قائمة الأديان

ندرج فيما يلي قائمة الأديان التي ســـنتعرف عليها، ونرصـــد موقفها من الأديان الأخرى ومن الإســـلام خصوصاً وهي تشمل (20) ديناً، وتضم أكثر من (100) طائفة ومذهب:[47]

الديانة	بالانكليزية	تاريخ التأسيس	بلاد الانتشار	العـدد التـقريبـي بالمليون 2020	وصف مختصر
المسيحية	Christianity	1 م	أوربا وأمريكا	2.383.000.000	أتباع السيد المسيح عليه السلام
الهندوسية	Hinduism	1500ق.م	الهند وما حولها	1.161.000.000	الدين الوطني للهند وتشـمل كل من يؤمن بالفيدات

[47] هذه القائمة مقتبسة من موقع ARDA مؤسسة أرشيف الأديان The Association of Religion Data Archives وهو موقع أمريكي يتبع لجامعة بنسلفانيا
/https://www.thearda.com/internationalData

البوذية	Buddhism	500 ق.م	الصين والهند وما حولهما	506.000.000	أتباع الحكيم بوذا المعلم النبيل
الكونفوشية	Confucianism	500 ق.م	الصين ومنغوليا والهند	156.000.000	ديانة صينية تنسب للحكيم كونفوشيوس
الطاوية	Taoism	500 ق.م	الصين واليابان	31.000.000	ديانة صينية تنسب للحكيم الصيني لاو تسي
الشنتو	Shinto	4 م	اليابان	30.000.000	ديانة اليابان التقليدية، ولا تنسب لمؤسس بعينه
السيخ	Sikhism	1520م	الهند وباكستان وبريطانيا	30.000.000	أسسها غورو ناناك، وتضم تقاليد إسلامية وهندوسية
اليهودية	Judaism	1250 ق.م	فلسطين وأمريكا	14.000.000	أتباع النبي موسى عليه السلام
البهائية	Baha'i	1863م	فلسطين وأمريكا وألمانيا	7.000.000	أسسها حسين النوري في إيران ومقرها في حيفا
الجينية	Jainism	500 ق.م	الهند	4.200.000	الحكيم الهندي ماهافيرا وتسمى اليانية و جين دارما
الزرادشتية	Zoroastrianism	600 ق.م	إيران والعراق	269.000	المجوسية، عبادة النار، وأهورا مزدا، وأهرمان
اليزيدية	Yazidis	750م	العراق وسورية والمهجر	100.000	تنسب إلى يزيد بن معاوية وهي مزيج من ديانات الفرس القديمة والإسلام
الصابئة	Sabaism	30 م	العراق وسورية والمهجر	70.000	تنسب للنبي الكريم يحيى عليه السلام
الكاودائية	Caodaism	1925م	فيتنام الجنوبية	4.400.000	وتنسب إلى السياسي الفيتنامي ناغ فان تشيو
التنريكو	Tenrikyo	1838م	اليابان	2.000.000	وتنسب للراهبة اليابانية ناكاياما ميكي
الشوندوية	Cheondoism	1812 م	كوريا	1.130.000	تنسب للراهب تو تشيو تؤمن بالله وتنكر الآخرة
الأوموتو	Oomoto	1850م	اليابان	200000	تنسب للراهبة اليابانية اوناسابارو
التوحيدية	Unification	1952م	كوريا	500000	تنسب للقس الكوري مون

الرستفارية	Rastafari	1930م	جامايكا	500000	تنسب للإمبراطور هيلاسيلاسي

وتجدر الإشارة إلى أن مركز بيو لدراسات الأديان PRC (Pew Research Center) وهو أهم مركز متخصص في هذا اللون من الدراسات اكتفى بالحديث عن ستة أديان كبرى في العالم، وهي المسيحية والإسلام والهندوسية والبوذية واليهودية والفولكلورية الصينية كما أضاف صنفاً سابعاً تحت عنوان: غير منتسبين (Unaffiliated) وصنفاً آخر تحت عنوان أديان أخرى، وهذه هي قائمة بيو لعام (2020م):

الديانة	العدد في العالم	النسبة من سكان العالم
المسيحية	2.383.750.000	31%
الإسلام	1.907.110.000	24.9%
غير منتمين	1.193.750.000	15.6%
الهندوسية	1.161.144.000	15.2%
البوذية	506.990.000	6.6%
الفولكلورية	429.940.000	5.6%
اليهودية	14.660.000	أقل من 1%
أديان أخرى	60.990.000	أقل من 1%
المجموع	7.658.434.000	100%

وكان بيو قد جمع الديانات الكونفوشية والطاوية والشنتو تحت عنوان الديانات الفولكلورية، ولكننا رأينا تفصيل كل من هذه الأديان في دراسة منفصلة.

وتتفاوت نسبة النمو العددي بين أتباع الأديان تبعاً لمعدلات الخصوبة والنمو السكاني والهجرة والتحولات، وقد رصدت موسوعة العالم المسيحي (World Christian Encyclopedia) التي تصدرها جامعة أدنبرة هذه الظاهرة لمدة أربعين عاماً من (1970–2010م) وانتهت إلى الأرقام التالية:

% change 1970–2010 (40 years)

9.85%	Daoism
4.26%	Bahá'í
4.23%	Islam
3.08%	Sikhism
2.76%	Buddhism
2.62%	Hinduism
2.60%	Jainism
2.50%	Zoroastrianism
2.10%	Christianity
0.37%	Unaffiliated
−0.03%	Judaism
−0.83%	Shintoism

- **المسيحية**

يقوم اللاهوت المســـيحي على فكرة الخلاص والمخلص، وهي أن النجاة يوم الدينونة محصـــورة بأولئك المؤمنين بالخلاص بدم المسيح، فمن آمن به خلص (مرقص: 16: 16) (من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن)، وعليه انتشرت القاعدة المشهورة: (لا خلاص خارج الكنيسة).

وتشتهر هذه العقيدة عند المسيحيين حتى تبدو واحدة من مسلمات الدين الأساسية، بل إنها تذهب إلى ما هو أكثر انحســـاراً وضـــيقاً، فيقتصـــر الخطاب الكاثوليكي على حصـــر الخلاص بالكاثوليكية وكذلك الأرثوذكســي والبروتســتانتي، مع فوارق في التعليل، ولكنها تتجه إلى فهم واحد وهو أن الخلاص المأمول من الفادي العظيم الذي ضـــحى بروحه لخلاص المؤمنين لن يســتفيد منه إلا أتباع الديانة وأتباع المذهب تحديداً.

الأوموتو

الأوموتو ديانة صغيرة في اليابان (Oomoto)، وقد نشأت في منطقة كيوتو التاريخية باليابان في مجتمع الديانة الشـنتوية، حيث وفرت بيئة الشـنتو جواً حافزاً للتوجهات الدينية المختلفة نظراً للانفتاح الذي يسـود عموماً في الديانة الشنتوية. وتنسب ديانة أوموتو للراهبة ديكوشي ناو (Deguchi Nao) التي عاشت في اليابان في الفترة من (1836–1918م) وهي ربة منزل من بلدة إيابي الصغيرة في المرتفعات الجبلية حول كيوتو، وقد عاشت حياة من الفقر والزهد، وتروي مصادر الأوموتو أن ديكوشي رهنت كل ما تملكه لإطعام زوجها وأطفالها. ويمكن اعتبار عام (1892م) العام التأسـيسـي للديانة، حيث تلقت ديكوشـي ناو الوحي الإلهي من الكامي في جبل أيابي، وسـتصـبح تلك الرؤية الروحية منطلق التأملات والنسـك الذي يمارسـه أبناء ديانة الأوموتو في اليابان. ويؤكد الأوموتو على أنهم يتشـــابهون مع الشـــنتو في البحث عن طريق الآلهة، ويختلفون مع البوذية التي تلتزم البحث عن طريق الإنسان، ويؤكدون أنهم يختلفون عن الشنتو في التأكيد على وجود الإله الأعلى فيما يتحدث الشنتو عن آلهة متساوية.

ومنذ تأســـيس الديانة حتى الآن فإن القيادة الروحية لأتباع الديانة تكون للنســـاء، وهن بنات وحفيدات ديكوشـي من جهة الأمهات، وقد بدأت بالسـيدة ناو ديكوشـي ثم أونيسـابارو التي توفيت عام (1948م) والآن ترأس الديانة كوري ناي ديكوشي (nai Deguchi Kure) المولودة عام (1957م).

ويعبر الأوموتو عن اعتقادهم بأن الكامي هو الروح الأعلى للكون، وأن الســـبيل متاحة ليتحد الإنســـان بالكامي الأعلى فيبلغ بذلك السـعادة المنشـودة. وتشـير موسـوعة (adherents) للأديان أن عدد أفراد الديانة عام (1995م) بلغ مليونين من اليابانيين، ولكن الموقع الرسـمي للديانة يشـير في عام (2020م) إلى أن عددهم يبلغ (182) ألفاً. وتتبنى الأوموتو بشكل واضح فكرة إخاء الديانات، وتقوم باستمرار بنشاط

متواصل للتواصل مع الديانات المختلفة في العالم، وبات مؤتمر حوار الأديان الدولي أحد تقاليد الديانة في أيابي وكيوتو، وتشـارك الأوموتو باسـتمرار في الفعاليات الدولية لحوار الأديان، ويقوم رؤسـاء الطائفة باسـتمرار بزيارة القيادات الدينية واليهودية والمسـيحية والإسـلامية في العالم. وتنظر الديانة بعين التقديس لاثنين من الكتب التي تعتبرها جزءاً من وحي ديكوشـي وهما أفديسـاكا (Ofudesaki) وريكاي مونوغتري (Reikai Monogatari) وكلاهما من جمع أونيسابارو وزوجها سابارو. ويلتزم الأوموتو بدعم كبير للغة الاسبرانتو بوصفها مشروع اللغة العالمية، ويعتبرون تعليم الاسبرنتو جزءاً من طقوسهم الدينية باعتبارها أداة للتواصـل بين البشـر وبناء مشـترك إنسـاني، وهو يقع في رأس أهدافهم. وقد أسـس الأوموتو جامعة خاصـة بعنوان: جامعة الحب والسـلام، تهدف إلى تخريج خبراء في العلوم الإنسـانية والاجتماعية، كما تهدف بشـكل مباشـر إلى بناء الجسـور مع الديانات، وتعزيز ثقافة التعدد الديني، ولقاء الديانات على المشترك الإنساني[48].

تجربتي مع الأوموتو

بدأت تجربتي مع طائفة الأوموتو في جامع أبي النور بدمشـق (1993م) حين عاد الشـيخ كفتارو من مؤتمر للأديان كان في موسكو، وتعرف فيه إلى عدد من المبجلين في الطائفة، وأنس فيهم لطفاً وانفتاحاً، وحدثهم عن الإسـلام كرسـالة جامعة للأديان، وقام بزيارتهم في اليابان، والتقى زعيمتهم الروحية ديكوشـي الحفيدة وابنتها الرائعة كوري ناي، حيث اسـتقبل بأعلى مسـتوى من الاحترام والتبجيل. بعد ذلك وجه لهم الشـيخ كفتارو دعوة لزيارة سـورية في رمضـان من العام نفسـه، حيث حضـر بالفعل أربعة من رؤسـاء الطائفة.

خلال شـهر كامل كان وفد الأوموتو يشـاركون الحياة الروحية مع المسـلمين في جامع أبو النور، وأمام الآلاف من الناس نطقوا الشـهادتين، وصـاروا يصـلون ويصـومون مع الإخوان في المسـجد... وفي آخر رمضـان سـافر بهم الشـيخ كفتارو، إلى السـعودية حيث قاموا بأداء العمرة وزيارة قبر الرسـول الكريم، ثم عادوا إلى بلادهم. وبعد عودتهم تحدث الخطباء والمشايخ أن طائفة الأوموتو قد دخلت في الإسلام، وأنهم مقدمة لدخول اليابان كلها في الإسـلام، وهكذا تصـور الناس أن القوم عادوا لتحطيم أصـنامهم وهدم معابدهم وتسريح كهنتهم، واستقدام مشايخ من الأزهر وبناء المساجد وتنظيم رحلات الحج والعمرة.

ولكن الأمور لم تكن كذلك، ووصـلت الأنباء أن القوم عادوا إلى دينهم القديم، وأنهم لم يلتزموا شـيئاً من أحكام الإسـلام، وتواترت الأخبار بهذا المعنى، وارتفعت أصـوات غاضـبة تطالب بمعاملتهم كمرتدين أو مخادعين {قال بعضهم لبعض آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره....}.

---

[48] للتوسع حول الأوموتو ننصح بالرجوع إلى الموسوعة البريطانية بريتانيكا وفق الرابط التالي:
https://www.britannica.com/topic/Omoto

كانت قناعتي أن الأوموتو لم يؤمنوا بالإســـلام عدواً للأديان، بل آمنوا به صـــديقاً نبيلاً لأديانهم، وأنهم اقتبسـوا من الإسـلام أروع ما فيه ليضـيفوه إلى تجربتهم الروحية العميقة..... وفي عام (2003م) تلقيت دعوة منهم لإلقاء محاضرات في جامعتهم المسماة جامعة الحب والسلام في أيابي، وسافرت مع الصديق العزيز إسماعيل ياسين، وقال لي السيد كيتارو: إننا سنستضيفك في الغرفة نفسها التي نزل بها الشيخ كفتارو، وكانت بالفعل غرفة رائعة متواضـعة مفروشـة بالحصـير وفيها فراش يوضـع في اليوك (الحائط) تفرشه بالعشي وتطويه بالنهار...!

في أيابي رأيت تماماً ما كنت أتوقعه، تجربة روحية عظيمة ونبيلة، وقلوب بيضـــاء نقية، تؤمن بالخالق وتسبح بحمده، وتصـلي عند طلوع الشـمس وعند غروبها، وتؤمن بالناس جميعا أفراداً في أسرة الله، وفي معبد من أجمل معابد الدنيا وأكثرها تألقاً وأناقة وجمالاً وســـط جنات تجري من تحتها الأنهار، وفي ظل ممدود وماء مسكوب وطلح منضود أقاموا جامعتهم جامعة الحب والسلام، وفي ركن هام في معبدهم رأيت صوراً لمشاركتهم في العمرة مع الشيخ كفتارو، وصوراً للقائهم بالبابا، وصوراً للقائهم بالدالاي لاما في حشد رائع لتجارب الإيمان الروحية في هذا العالم الكبير.

إنهم يؤمنون بالله الواحد، ويؤمنون بألف اسم من أسمائه، ويؤمنون بالحقيقة الواحدة، ويؤمنون بألف درب يوصل إليها، ويؤمنون بالإشراق الروحي، ويؤمنون بألف دين يسمو إليه، ويؤمنون بالنور الواحد، ويؤمنون بألف مصباح يقتبس من نوره، ويؤمنون بالحب الواحد، ويعرفون ألف قلب يلتهب بأشواقه وأذواقه....

الواحد في الكثرة والكثرة في الواحد..... حقّقْ لا ترى إلا الله.....!!

الفصل الرابع: إخاء الأديان في كلام الفلاسفة

نخصـص هذا الفصـل للحديث عن عدد من أعمدة الحكمة في الحضـارة الغربية الذين قاربوا ما ندعو إليه من إخاء الأديان، ولو لم يسـتخدموا المصـطلح إياه، ولكن دراسـاتهم كانت تتجه لبناء إيمان متسـامح لا يزعجه وجود الديانات الأخرى، ولا يسمح بانتشار رياح الكراهية والبغضاء الدينية.

ومع أن حركة نقد الدين وإصـلاحه كانت جزءاً أسـاسـياً من عصـر النهضـة وما تلاه من عصـر الأنوار، ولكن من المبالغة أن نقول: إن الفلاسفة الأوربيين كانوا يتجهون إلى إخاء بين الأديان، حتى على مستوى المذاهب الإنسانية، فقد ظلت الديانات في تصورهم جزءاً من المشكلة لا جزءاً من الحل.

ويجب القول إنه حتى في حركات الإصـــلاح الديني بكل أشـــكالها لم يظهر ما يكفي للحديث عن إخاء الأديان، ولم تظهر الحاجة الملحة لإخاء الأديان، فأوربا ظلت في نظر غالبية الأوربيين نادياً مســـيحياً، والانقسامات المسيحية المتلاحقة كانت توفر في الذهن الشائع ظاهرة الأديان المتعددة، وكان الحديث عن التوحد والإخاء والتقارب يتم عادة تحت راية المسـيح المخلص وفي سـياقه. كما أن العلاقة مع الإسـلام ارتبطت للأسـف بصـدامات عنيفة لم تتوقف منذ الحروب الصـليبية ثم الحروب التركية في أوربا وأخيراً عصـر الاستعمار. ويمكن القول: إن الأمور بدأت تأخذ منحى آخر منذ مطلع القرن العشرين مع انتشار وسائل المواصلات الحديثة، وبعد أن تكرس لقاء الشعوب والأمم كحتمية تاريخية واجتماعية، حيث ظهرت تيارات كثيرة تطالب بإخاء الأديان، وتبنت الأمم المتحدة عدة مبادرات تتصـل بذلك، وأطلقت هيئات مهمة محاولات جدية لإقامة هيئة الديانات المتحدة ولكنها لم تجد طريقها بما يكفي لإحداث التغيير الاجتماعي بشكل جذري.

ويلزم القول أن هؤلاء الحكماء لا يمثلون بالضـرورة الديانة المسـيحية ولا اليهودية، وربما كانت لهم مواقف سـلبية من التراث المسـيحي، ولكنني أعتبرهم في النهاية مفكرين مسـيحيين يحملون رؤية إخاء الأديان وكرامة الإنسـان، وتحدث بعضـهم بحرية واحترام عن الإسـلام، وكانوا يطرحون آفاقاً للعيش والتكامل بين أتباع الديانتين قائم على أسـاس الاعتراف والاحترام بالرسـالة المحمدية، وتقدير آفاق التكامل والإخاء بين الإسلام وبين القيم الحضـارية التي تم تقديمها عبر أوربا بوصـفها نادياً مسيحياً، لا يزال يؤسس الأحزاب المسيحية، وينص على المسيحية ديناً للدولة، ويحافظ على الصليب في صدر تسعة عشر علما من أعلام الدول الأوربية.

وسنورد في نهاية الفصل مواقف عدد من هؤلاء المشاهير والأدباء في الحضارة الغربية الذين طرحوا رؤى متقدمة في إخاء الأديان، وبوجه خاص في العلاقة بالإســـلام رســـالة ورســـولاً، وقراءتهم الإيجابية لروح التعاون والتكامل والإخاء بين الإسلام والديانة المسيحية بوجه خاص.

- **الدين الطبيعي**

شـــاع مصـــطلح الدين الطبيعي في القرن الثامن عشـــر في ســـياق المحاولات النقدية التي طرحها العلم التجريبي على المسـلمات الاعتقادية المسـيحية، ووجوب إصـلاحها، ويرى واضـعو المصـطلح أنه يمكن الوصل إلى الأهداف النبيلة للدين عن طريق البحث في المشترك الإنساني، وغايات الطقوس والممارسات، حيث يمكن استخراج نسق ديني طبيعي يتناسب مع الجغرافيا والديموغرافيا والموروث الديني بعد إصلاحه. ويجب الإشـــارة هنا إلى الفيلســـوف **ديفيد هيوم** (1711-1776م) الذي كتب **(محاورات في الدين الطبيعي)**، ومع أن رســـالته لا تهدف إلى الإخاء الإنســـاني بين الأديان، بل لا تتجه إلى أي هدف

اجتماعي، وهي محض إرواء للمعرفة وسفر إلى الحقيقة، ولكنها على كل حال تعزز الفكرة من وجه آخر، فهي تقترح دوراً أكبر للضمير ورغبة الكمال بوصفها تجلياً دينياً، يساعد في تحرير الدين من اللاهوت.

وفي معالجة مباشـــرة لمفهوم الدين الطبيعي يقول هيوم: «الدين الطبيعي دين عقلاني ولا يتوكأ على الوحي، وفي مقابل الدين الطبيعي هناك الدين الوحياني الذي يعتمد على الوحي والإلهام الإلهيين»[49].

كما أنه يؤكد أنه بالإمكان رصـد مشـاعر الناس نحو الكمال وموقفهم من الفضـائل والرذائل لنصـل إلى قواعد للدين الطبيعي، إن ميل الإنســـان نحو الكمال المطلق ميل فطري يتم أحياناً عبر الاعتقاد بالله اللامتناهي، كما يتم أيضاً على شكل ميل نحو رغبة جامحة بسمو الذات، إنها محاولة لرفع الإنسان نفسه من التراب الأرضـي إلى السموات اللامتناهية. وتؤسس فكرة الدين الطبيعي لقدرة الكيان الاجتماعي على تخير قيم مفيدة للمجتمع، من القيم المشتركة ومشاعر الضمير، يتم منحها طابعاً قدسياً وروحانياً يحقق ما تحققه الغريزة الدينية، ويحمل الناس على إنتاج دين مفيد يحقق لهم السعادة والمحبة.

ولا يخفي هيوم شكوكه تجاه الديانات التوحيدية بوصفها احتكاراً للحقيقة قد يتسبب في الكراهية والحروب، ويرى هيوم أنَّ الدِّيانات التعدُّدية أكثر تسامحاً من التوحيد؛ فالشعوب متعدِّدة الأديان يسود بينها التسامح وثقافة العيش ســـويًّا، في حين أنَّ هذا لا يحدث مع الدِّيانات التَّوحيديَّة التي ترى أنَّها وحدها التي تحوز الحقَّ المطلق، وما عداها من أصـــحاب الديانات الأخرى فهم على وهم وضـــلال. وأنَّ من واجب هؤلاء الموحِّدين إرشاد هؤلاء الضالِّين إلى طريق الحقِّ وإجبارهم على اعتناق ما يؤمنون به، ومن ثمَّ يتكدَّر مناخ السلام العامِّ ليسود الصراع والحرب وسفك الدماء[50].

ولكن ذلك غير واقعي، فقد مارس الرومان والإغريق الوثنيون أشد البطش بحق الفلاسفة التنويريين، فقد تم إعدام سقراط بالسم لأنه عارض آلهة أثينا، وحكم بالإعدام على بروتاجوراس وإنكساجوراس وأرسطو الذي فر إلى خلقيس وقال: لن أسمح لأثينا أن ترتكب جريمة أخرى بحق الفلسفة.

وفي الواقع فإن التسامح والتعصب سياق اجتماعي أكثر مما هو نسق فلسفي.

---

[49] خاني، محمد فتح الله علي، فلسفة الدين عند هيوم، ترجمة حيدر نجف، ص57.

50 سامية عبد الرحمن، الدين والمعجزة في فكر هيوم التجريبيّ، مجلة الاستغراب، عدد 18 لعام 2019م.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦ ﴾

الزمر: ٤٦

دراسات حول الكتاب في الشهر الأول لصدوره

دراسة بقلم الكتاب محمد الحمامصي

دراسة بقلم حنان عقيل

دراسة بقلم محمد حبش

دراسة بقلم محمد الحمامصي

حان الوقت لينفض أتباع الأديان السماوية عنهم وهْمَ أنهم شعب الله المختار

محمد حبش: "إخاء الأديان" يلامس روح الأخوة الإنسانية دون أن يخوض في دعوات التوحيد

الاثنين 03/05/2021

هل تبدو فكرة الإخاء بين الأديان حلماً خيالياً غير واقعي؟ وهل نحن ننفرد فيه ونخرج به دون بقية الديانات، أم أنّ هناك من يؤيّدنا في هذا التوجه؟ وهل لهذه الدعوة ظهير في الشريعة الإسلامية من نصوصها وفقهائها؟ وهل هناك في الأديان الأخرى من يعبأ بمثل هذه الدعوة، ويرى فيها مبادرة إيجابية للإخاء والتراحم في الأرض؟ وهل تشهد المجتمعات المتحضّرة ونخبها الفكرية إصلاحاً حقيقياً في الإخاء مع الآخر الديني؟

القاهرة - حاول الباحث الإسلامي السوري محمد حبش الإجابة عن جملة من الأسئلة المتعلقة بالإخاء بين الأديان بوصفها الوسيلة المثالية والطريق السالك إلى الإخاء بين الإنسان بغض النظر عن أصوله وتاريخه ولونه وعرقه.

وأطلق الدكتور حبش المتخصص في الشريعة ودراسات الأديان مشروعاً لافتاً في الفكر الإسلامي تحت عنوان إخاء الأديان وكرامة الإنسان، يلامس عميق الأخوة الإنسانية دون أن يخوض في دعوات توحيد الأديان وإنتاج ديانات جديدة.

ويرى حبش في كتابه "إخاء الإنسان" أن إخاء الأديان يثير مشاعر متناقضة لدى أتباع الديانات، فرغم القبول النفسي للعنوان واعتباره من أهداف الدين فإنّه يصطدم بنصوص قطعية في معظم الديانات التي تعتبر الخلاص شأن الديانة الناجية وحدها، وأنّ مسؤولية أبناء الديانة هي دعوة معتنقي الأديان الأخرى للتخلي عن معتقداتهم والدخول في الديانة الحق بهدف بلوغ النعيم السماوي الخالد، الجنّة أو الفردوس أو النيرفانا أو الظهور الجديد، وفق ما تكرّسه الأديان من ثقافة وتقاليد.

وأشار في كتابه الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود إلى أنه من المدهش أنّ المجتمعات الإنسانية، ومنها معظم الدول الإسلامية، باتت تمارس قدراً كبيراً من الإخاء الديني، في إطار المعاملات والتواصل المجتمعي، وبشكل خاص في الدول الديمقراطية التي باتت قوانينها تفرض سلوكيات كثيرة من قبول الآخر واحترامه ومودته، وهدّمت حواجز كثيرة من التمييز والاتهام، ولكنّها ترتدّ في لحظة النصّ إلى الحوارات العقيمة التي تجعل من الآخر دوماً شيطاناً ضالاً مصيره الشقاء والخذلان، تضيق به رحمة الخالق، وينال أشدَّ العقاب على ضلاله وإصراره، وهذا مدلول النصوص الظاهرة في الأديان الإبراهيمية بشكل خاص، ومن المؤكد أنّ هذا التفكير موجود بشكل أقل في الديانات الفيدية "الهندوسية والبوذية"، ولكنّه غير موجود في الأديان الفلكلورية الصينية واليابانية.

الشقاق الاجتماعي

محمد حبش

باحث سوري في الشريعة والأديان، يتبنى عددا من قضايا التجديد الديني أهمها رفض احتكار الخلاص وتجديد فقه المرأة في الإسلام وإحياء مصادر الشريعة الغائبة. صدر له 52 كتابا، من بينها:

- سيرة رسول الله
- النبي الديمقراطي
- المسلمون وعلوم الحضارة
- إسلام بلا عنف
- المرأة بين الشريعة والحياة

لا شك في أنّ المسألة لا تتوقف عند الجانب اللاهوتي، بل هو أيسر المسائل، فهي تتعداه باستمرار إلى الشقاق الاجتماعي، وتبادل الريب والاتهام، وتحقير الذات الإنسانية، فمن كان عند الخالق حقيراً مرذولاً لن يكون عند عباده في حال أفضل، وسيتنامى شعور الكراهية بشكل مطّرد من الأيديولوجيا إلى السوسيولوجيا، ومن ثم فإنّنا لن نكون أبداً أمام مجتمع مستقر أو متراحم، بل سنجد أنفسنا أمام ركام من البغضاء قد تزيّنه بعض الممارسات، ولكنّه يرتدّ في لحظة الاصطفاف إلى جحيم الكراهية ونار البغضاء.

ولاحظ حبش أن الإنسان أمضى قروناً طويلة ينظر بعين الريبة والحذر لأخيه الإنسان ويبادله اتهاماً بعد آخر، وانطبعت قصّة قابيل وهابيل مصدر إلهام للصراع الأبدي في الأرض، ووجدت الصراعات

والحروب المدمّرة تبريراً أخلاقياً، وتمّ تكريس عدد من المجرمين أبطالاً ملهمين في التاريخ، وبات المثاليون اليوتوبيون مساكين حالمين، يرثي لهم الواقع الصاخب الذي ترسمه سياسات التسابق على الثروة والقوّة والنفوذ. ومن المؤلم أنّ هذا الصراع انعكس أيضاً على جدل أتباع الأديان الذي بدا تسخيفاً وتشكيكاً، ثم صار تحقيراً ولعناً وتكفيراً، ثم تحوّل إلى حروب ضارية. ووجدت هذه الحروب، باستمرار، تبريراً أخلاقياً على الرغم ممّا فيها من ممارسات التوحّش البهيمية، ووجدت للأسف من بات يطلق عليها الحروب المقدّسة، ويكرّس أبطالها ومجرميها رموز التضحية والفداء.

وأكد الباحث السوري أن كتابه يسعى إلى معالجة هذه المسألة وفق قراءة جديدة للنصوص الدينيّة، والتوفيق بين الديني والاجتماعي والفلسفي، ويعمد إلى استقراء النصوص الدينية الأساسية التي تتبنّى فكرة ضلال الآخر وخسرانه، ويحاول بناء وعي جديد قائم على ثقافة احترام الآخر اعتقاداً وديانة ومذهباً، ويجتهد في التماس أجمل ما في الأديان، ويتبنّى تشجيع الديانات على الإخاء والتراحم فيما بينها ونزع أسباب التمييز والكراهية.

ولفت إلى أن كتابه يتجه أيضا إلى أفق آخر، حيث يبحر في الجوانب المشرقة من الاعتقاد الديني لدى كلّ ديانة وطائفة، ويهدف إلى بسط الأعذار لدى المخالفين لفهم روح الطقس الذي تمارسه هذه الديانات، وبيان أنّها تتجه إلى أهداف نبيلة. وهكذا فإنّه يحاول أن يقدّم للمكتبة العربية رؤية مختلفة لجدل الديانات، حيث يتخيّر من النبوّات والفلسفة والحكمة رائع المحاولات التي انطلقت من إيمان الإنسان بالإنسان، ويرصد أرق ما امتلكه الإنسان من مشاعر وأعمق ما نظر إليه بعين القداسة، لبناء عالم جديد يتأسس على المحبّة والعرفان.

ويقول حبش إن الفكرة تتأسس على أنّ هناك مكاناً يظهر أجود ما في الإنسان، ويكشف عن الجانب النبيل من إنسانيته، وهو في الغالب في قدسه الروحي الذي تحمله الأديان، تأسيساً على الحكمة والإرادة والنبل في مقاصد الخالق العظيم، وإيماناً بالإنسان الذي مارس تقديس هذه القيم بوعيه الجمعي، ممّا يؤكد وجود الجانب النبيل في تلك القيم المستقرة جيلاً بعد جيل وأمّة بعد أمّة.

واعتبر أن كتابه لا يهدف إلى تكريس قطيعة معرفية ومجتمعية مع اللادينيّين، فهدفه هو الإخاء الإنساني، والغاية الإنسان وليست الأديان، وإنّما كرّس الحديث عن إخاء الأديان لمعنيَيْن اثنيْن، الأول: أنّ الأديان لا تزال تشكّل الوعي الجمعي لغالبية سكان الأرض، وهي مسؤولة أخلاقياً عن نشر المحبّة ومواجهة الكراهية.

والثاني: أنّ ثقافة الكراهية والتدابر تنشأ في الغالب من مجتمعات الأديان، وتُبنى على أساس ديني، وبات من الواجب مواجهة هذه الخطايا باعتماد هدي النبوات، وإظهار الجانب الإيجابي والإنساني من ثقافة الأديان. ومن المؤكد أنّ للإنسان -بغض النظر عن أي انتماء ديني- مساحة في أعماقه للتأمل والروح. وقد نجح الفلاسفة في إيقاظ هذه المشاعر النبيلة عبر حديثهم عن الإشراق والفيض والتأمل، كما نجحت الموسيقى والشعر في إحياء هذه الروح النقية في الإنسان، وباتت هذه المشاعر رصيداً مشتركاً من الصفاء والطهر بين سائر الأبرار في هذا الكوكب، وأصبحت هذه القيم ظهيراً للقيم الدينيّة في دعم الإخاء الإنساني، وهي شريك طبيعي لكلّ جهود إخاء الديانات.

مواجهة احتكار الخلاص

أولى حبش اهتماماً مباشراً بالتأسيس لفكرة إخاء الأديان في الوعي الإسلامي، ومواجهة السائد في تفكير الرواة من وجوب البغض في الله، وافتراض الصراع بين الأديان صراعاً وجوديا لا يحتمل أي صيغة وفاقية، وأنّ إرادة الله قاضية أن تتصارع الأديان والأيديولوجيات إلى النهاية وأنّ البقاء للأقوى ومصير الآخرين الاندثار.

وقال إنّ "ثقافة الكراهية لم تقف عند حدود المختلف في الدين، بل دخلت أيضاً إلى المختلف في المذهب، واتخذت شكلاً أشد ضراوة وعنفاً.. إنّ أكثر من عشر حروب حقيقية في الشرق الأوسط قامت في العقود القريبة على أساس طائفي، أو كان البعد المذهبي جزءاً رئيساً في إيقاظ نوازع الحرب وتبرير الكراهية. وتمضي عقيدة احتكار الخلاص إلى الغاية في نصّ مشهور: افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا واحدة. ورغم الجهود التأويلية الكثيرة التي قدّمها الفقهاء، وكذلك الجهود النقدية التي قدّمها الرواة، ظلت هذه الروايات أهم دوافع الإقصاء والكراهية."

وأضاف "نشأت تيارات كثيرة تتبنّى البغض في الله بين التيارات المنقسمة، سُنّة وشيعة وصوفية وسلفيّة وظاهرية ومؤوّلة وإسلاميّين وعلمانيّين."

وتوقف حبش أيضا باهتمام أمام الجهود الكبيرة التي بذلها الإصلاحيّون المسيحيون لمواجهة احتكار الخلاص، ويستعرض بشكل خاص فلاسفة عصر الأنوار، وكذلك فلاسفة الدين الطبيعي والإصلاح الديني، ويرصد التطورات الإيجابية التي تحققت على مستوى المؤسسات المسيحية الرسمية، والتي توّجت خاصة بتوقيع وثيقة الأخوّة الإنسانيّة بين البابا وشيخ الأزهر.

وتساءل "هل الأديان مشكلة أم حلّ؟"، وتابع أن "إخاء الأديان الذي نسعى إليه غير ممكن في القراءات اللاهوتية السائدة على الأقل على مستوى الديانات السماوية، وبشكل أقل الديانات الدارمية والفلكلورية، حيث يلتزم لاهوت هذه الديانات بشكل صارم برفض الاعتراف بالأديان الأخرى، وفي هذه النقطة فإنّ استحضار مواقف متطرّفة لرجال الدين أمر سهل، أولئك الذين يبررون باسم الرب نسف كل جهودنا واعتبارها هرطقة وانحرافاً، ومن عجيب ما واجهت أنّ عدداً من المتشدّدين الإسلاميين باتوا يذكرون بإعجاب مواقف المتشددين في الديانات الأخرى، على الرغم من قسوتها وشدّتها على كلّ مسلم، وذلك باعتبارهم صادقين وصريحين ومنسجمين مع عقائدهم، بخلاف دعاة التقريب والإخاء الذين يتم وصفهم دوماً بالمنافقين المتلوّنين."!

وواصل موضحا "في هذا السياق فإنّ الأديان هي جزء من المشكلة وليست جزءاً من الحل، وهذا ما يرثي لنا فيه دوماً التيار العلماني المتشدد الذي يرى أنّ الحل في قطيعة كاملة مع الدين، والاعتراف الصريح بأنّه لم يعد صالحاً للمجتمعات الحديثة وأنّ مكانه دراسات التراث البائد. ويتعين هنا عدم التعميم، فهذا موقف فريق متشدد من العلمانيين، ولكن التيار الغالب في العلمانية هو تيار يفصل بين الدين والدولة، ولا يرفض وجود الدين وما ينهض به من أدوار نفسية واجتماعية انطلاقاً من ذات الفرد."

المساواة بين الأديان

ثقافة الكراهية لم تقف عند حدود المختلف في الدين، بل دخلت أيضاً إلى المختلف في المذهب، واتخذت شكلاً أشد ضراوة

ولفت حبش إلى أنّ رجال الدين في كل الأديان في الغالب لا ينظرون بودّية لهذه الجهود، ويرتابون فيها لأنّها قائمة على تفكيك التفسير الحرفي للدين، والنهوض بتفسير مقاصدي سيكون من نتيجته بطبيعة الحال دور أقل لرجال الدين ودور أكبر للعقل وشروط المجتمع، وهو ما يرونه عملية مبرمجة ضد المؤسسات والطقوس والممارسات الشعائرية التي يقودها رجال الدين. وبذلك فإنّه يمكن القول إنّ رجال الدين عموماً لن يرحّبوا بمثل هذا الخطاب، وسيمارسون في الغالب دوراً رافضاً للإخاء الديني وربما سيقبلون إلى حد ما نوعاً من الإخاء البروتوكولي المتمثل في اللقاءات الاستعراضية التي يعقبها عادة تقديم المعاذير والتبرير للجمهور، وتأويل ما جرى بأنه لمصلحة الدعوة وتآلف الناس لإدخالهم في الدين الحق.

وشدد حبش على أنّ الاعتقاد بمساواة الأديان وإمكان تعايشها وتبادل الاحترام فيها وتكاملها وتضامنها أمر حيوي وممكن ولا يشكل تحدياً لأي دين، وحتى إن تناقضت الفكرة مع بعض النصوص المقدسة، فإنها تتطابق تماماً مع نصوص أخرى كثيرة.

وقال "إنني لا أقدم العالم للمسلم على أنّه جمعية خيرية، ولكنه ليس بالضرورة وكر ذئاب، وأن العالم يفكر كما نفكر ففي كل أمة متعصبون ومتسامحون، واتجاه لاهوتي صارم واتجاه إنساني متسامح، وأن التاريخ الإسلامي طافح بالأسماء الكبيرة التي تبنت الدعوة إلى إخاء الأديان، وناضلت في سبيل هذه الغاية النبيلة."

وخلص الباحث السوري إلى التأكيد على "أن كل الديانات خاضت حواراً كهذا، وأن الكهنة كانوا يقفون باستمرار ضد التوجه التكاملي مع الآخرين، ويفضلون التأكيد على احتكار الحقيقة واحتكار الخلاص، ولكن رجال الفكر والحكمة لم يتوقفوا في كل الأديان عن المواجهة مع التيارات المتشددة،

وقد باتت جهودهم مثمرة وناجحة، وأصبح التيار المؤمن بالإخاء الإنساني في سائر الأديان أكبر من التيار المطالب بالانعزال والعكوف على ثقافة القدماء واختياراتهم"، مشيرا إلى أن الإسلام مؤهل لأن يكون رائداً في ثقافة إخاء الأديان وكرامة الإنسان، فنصوصه طافحة بهذه الحقائق، ومنهجه التربوي طافح برفض الآبائية والورائية، وهو يؤكد باستمرار على البحث في المستقبل. وحين استعراض الماضي بكل تلويناته، من تاريخ وتراث وثقافة، وما ارتبط به من نزاع وحروب وكذلك من نصوص وردت في ظروف مختلفة تمنع الإخاء الإنساني وتحول دون اللقاء والإخاء بين أهل الأديان، فإن المنهاج القرآني أصيل وواضح وقد تكرر في صفحة واحدة مرتين "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ" (البَقَرَة 134).

واعتبر حبش أن الوقت حان لينفض المسلم وكذلك المسيحي واليهودي وهْم أنهم شعب الله المختار، وحان الوقت ليدخل الجميع إلى عقد جديد يؤمن فيه الجميع بالدين قوة روحية طامية، ونوراً يشرق به الله في قلب ابن آدم، والنور لا يطفئ النور، والعافية لا تشاقق العافية، والأمل لا يصادم الأمل، إنها قيم تتراكم في انبثاقها من الذات الإلهية التي يقدمها القرآن الكريم كما يقدمها الإنجيل الكريم، كما تقدمها كتب الحكمة في سائر العصور.

الدراسة الثانية عن كتاب إخاء الأديان: حنان عقيل

المفكر السورى محمد حبش: نحتاج إلى «إخاء إنسانى» على قاعدة «لكم دينكم ولى دين» (حوار)

الأحد 16/مايو/2021 - 07:48 م

شدد على ضرورة إعادة الاعتبار لـ«الإسلام الصوفى المتسامح» الذى يقبل الاختلاف فى الفقه والعقيدة

المرجعيات الدينية تستنكر العمل العنيف لكنها تعود لتأسيسه على مقاعد الدرس

نتعامل مع الماضى بقداسة مفرطة وبات من الواجب ممارسة النقد البنّاء لعصور السلف

لا يهم فى الفقهاء كثرة الصوم والصلاة والالتزام بظاهر النص الدينى بل علمهم بحاجات الأمة واستنباط القوانين الحيوية

اهتم المفكر الإسلامى السورى محمد حبش عبر نشاطه البحثى والأكاديمى وإصداراته التى تربو على الأربعين كتابًا بالتجديد الدينى، إذ أصدر العديد من الكتب منها «النبى الديمقراطى»، و«المسلمون وعلوم الحضارة»، و«إسلام بلا عنف»، و«منهج التجديد والإصلاح»، و«المعتمد فى أصول الفقه»، و«المشترك أكثر مما نعتقد»، كما أسس فى سوريا «مركز الدراسات الإسلامية» و«رابطة كتاب التنوير»، وعمد إلى تعزيز خطاب

التنوير الإسلامى عبر المشاركة فى عدة مؤتمرات إسلامية، فضلًا عن انتخابه مرتين رئيسًا لجمعية علماء الشريعة فى سوريا.

درس «حبش» العلوم الإسلامية فى المعهد الشرعى للدعوة والإرشاد، ونال الإجازة فى الشريعة من جامعة دمشق، كما حصل على ثلاث درجات ليسانس فى العلوم العربية والإسلامية من جامعات دمشق وطرابلس وبيروت، ثم حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة القرآن الكريم فى الخرطوم، ويعمل حاليًا أستاذًا للفقه الإسلامى فى جامعة أبوظبى .

»الدستور» حاورت المفكر السورى، الذى نالت أطروحاته استحسان قوى تنويرية عدة، حول عدد من القضايا التى تبنّى الدفاع عنها فى كتاباته، على رأسها محاربة الفكر المتطرف، وتجديد فقه المرأة، والتركيز على أهمية الإخاء بين الأديان انطلاقًا من كتابه «إخاء الأديان» الصادر حديثًا عن دار «مؤمنون بلا حدود.«

■صدر لك حديثًا كتاب بعنوان «إخاء الأديان» وفيه تستعرض نصوصًا من الإسلام تدعم فكرة إخاء الأديان كما أوضحت، لكن فى المقابل فإن النصوص التى يُستدل بها على عكس ذلك تحظى بانتشار يسهم فى دحض أى رؤى تنويرية.. كيف تنظر إلى تلك المسألة؟ وكيف يمكن تجاوز تلك الأفكار والانطلاق نحو رؤية إنسانية واسعة تستوعب الجميع فى نطاقها؟

-كتاب «إخاء الأديان» خلاصة جهد استمر أكثر من عشرة أعوام، وأعتبره رسالتى التى لخصتها بإخاء الأديان وكرامة الإنسان.. بالطبع يفترض أن يحترم كل إنسان كلمة إخاء الأديان، ولكنها، للأسف، تصطدم بنصوص قاطعة فى معظم الأديان تؤسس لاحتكار الحقيقة والخلاص والجنة، الأمر الذى يجعل من ينادون بهذه الغايات النبيلة فى دائرة الاتهام.

وفى الواقع فليس القصد الأديان، بل الإنسان، وما نسعى له هو الإخاء الإنسانى، ولكن لا بد من التركيز على إخاء الأديان لسببين: الأول، لأن التعصب الدينى بات أكثر مصادر الكراهية فى العالم، وفى بلادنا بات الصراع المذهبى والدينى سببًا جوهريًا فى التشظى المجتمعى والحروب التى تتوالى بأشكال مختلفة.. والثانى: إن سائر مراكز الدراسات تؤكد أن الانتماء الدينى هو حال ٨٧٪ من سكان هذا الكوكب، طبعًا الانتماء وليس الالتزام، ما يكفى لإثارة مشاعر احتكار الحقيقة.

بالتالى لا بد من مواجهة هذا الواقع لأن الناس وإن كانوا غير ملتزمين بأديانهم، فإنهم فى ساعة الأزمة يعودون إلى اصطفافهم التقليدى، وهو ما يتطلب مزيدًا من العمل والجهد فى بؤرة الصراع.. وحتى نكون واضحين فقد أكدنا أن المقصود هو إخاء الأديان القائم على احترام المختلف وليس على اعتقاد صوابه، فلا يقول بصواب المتناقضات إلا مجنون، فليس المقصود التماهى مع الآخر وتصويب كل معتقد، بل القصد هو احترام إيمان الآخرين على قاعدة «لكم دينكم ولى دين .«

ومن ثم، فالكتاب يتناول بدقة أدلة الإخاء الدينى من مصادر الإسلام العشرة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح والعرف والذرائع والاستصحاب وشرع من قبلنا، ويقدم الأدلة ويستحضر فى الوقت نفسه الأدلة التى تقابلها ويناقشها، ويقدم سياقًا متصلًا من أدلة الشريعة لمبدأ إخاء الأديان، ثم يقدم استقصاءً تفصيليًا لأئمة الإسلام الكبار من فلاسفة وحكماء وفقهاء وحقوقيين من الذين سبقوا إلى القول بإخاء الأديان كما نتبناه، ويكشف عن أن مبدأ إخاء الأديان نادى به مئات المفكرين والفلاسفة خلال التاريخ الإسلامى، وللأسف فإن الطبقة الأكثر رفضًا لمبدأ إخاء الأديان هم رجال الدين فى كل الأديان.

يستعرض الكتاب كذلك مواقف الأديان المختلفة، ويستوفى سبعة عشر دينًا سائدًا فى العالم، ويستخرج من كلام حكماء الأديان مواقف الإخاء الدينى، ويؤسس للجسور المشتركة بين الأديان، كما يستعرض مواقف فلاسفة عصر الأنوار بشكل خاص الذين نجحوا فى تحويل المزاج العام فى المسيحية من عقيدة احتكار الخلاص واحتقار المخالفين إلى عقيدة إنسانية تؤمن بالتعدد والاختلاف وتحترمه.

■قلت «نعيش آخر عصور التعصب الدينى».. ما الذى قصدته هنا؟ وكيف يمكن الركون إلى أمل بنهاية نفق التعصب الدينى المظلم فيما يعتصر العالم بويلات التعصب الدينى وما ينجم عنه من عنف وإرهاب؟

-أرجو ألا أكون قد وقعت فى مطب الإفراط فى التفاؤل، لأن الواقع العربى لا يُبشّر بذلك أبدًا، ولكنه سياق التاريخ، وبالمقارنة مع أوروبا فى القرن الثامن عشر فإن الروح الصليبية التى أشعلت الحروب باستمرار نحو ثمانية قرون كانت جاهزة للاستمرار وتملك كل موارد النصوص المتعصبة والتاريخ الدموى المقدس، ولكن الجهود الجبارة التى قام بها عمالقة الفكر الأوروبى، وبشكل خاص إيمانويل كانط وفولتير ورينيه ديكارت وجان جاك روسو ولايبنتز وفيورباخ وهيجل، نجحت فى النهاية فى التأسيس للمذهب الإنسانى فى المسيحية وفرضت على المجتمعات المسيحية التخلى عن فكرة احتكار الخلاص واحتقار المخالف، إلى اعتماد القيم الديمقراطية فى الإيمان، وهو ما أوقف الحروب الدينية وفتح الحوار وأعاد أنسنة الديانة المسيحية بعد قرون من الحروب الدينية الضارية.

إننى أراهن على أن نقوم بهذا الدور، وأعتقد أن الإرادات السياسية فى البلاد العربية والإسلامية تتقبل ذلك وتسهم فيه، فيما تعيش الدول الفاشلة، وبشكل خاص اليمن وسوريا والعراق، الفوضى المدمرة التى توفر جحيم الصراع على كل المستويات والذرائع .

■ما السبب، برأيك، فى انتشار الأفكار الدينية المتكلسة والرجعية فى مقابل خفوت أثر الآراء التنويرية لمختلف المفكرين الإسلاميين على مدار العصور؟ ومَنْ المسئول عن تغييب العقل على حساب النص فى الخطاب الدينى السائد؟

-قناعتى أن الأمر سياق تاريخى عاشته معظم الأمم فى سقوطها الحضارى، ولكن لا بأس من الإشارة إلى بعض المنعطفات المهمة، فقد كانت سيطرة الحركة الوهابية على الحرمين

الشريفين واعتماد سياسة نصية حرفية صارمة ونشرها فى العالم الإسلامى سببًا جوهريًا فى انتشار ما أسميه عبادة النص، وانحسار دور العقل، وبالفعل فقد انتشر التفكير القائم على مبدأ حراسة التوحيد الذى يقتضى محاربة كل أنواع الشرك، وقد اندرج فيها ببساطة كل الأنظمة والأنماط الاجتماعية السائدة فى العالم الإسلامى ومنها الصوفية والأشعرية والتيارات العقلانية والعلمانية .

لقد بدأ هذا الصراع بين العقل والنص، أو بين الرأى والرواية، منذ فجر الإسلام، ويمكن القول إن مذهب العقل والفقه انتصر خلال العصر الذهبى للإسلام، وأنتج عشرة مصادر للشريعة تمتاز بالمرونة والتسامح، تشاركت فيها المذاهب والأديان والتيارات الاعتزالية والعلمانية بقدر ظاهر وواضح، واستمر ذلك أكثر من عشرة قرون، ولا مناص من القول إن الحركة الوهابية كانت انتصارًا لتيار النص على تيار العقل ولتيار الرواية على تيار الفقه، وبالتالى ولادة التيارين الأساسيين فى السلفية: السلفية الجهادية المقاتلة والسلفية العلمية المحتكرة للإيمان، وبالتالى انتشار التشدد بالصيغة المعروفة.

وقد استفاد هذا التيار الغاضب بشكل كبير من الفشل السياسى فى أفغانستان والعراق وسوريا واليمن وليبيا، فأسس كيانات سياسية مدمرة، كما شكل، ولا يزال، كيانات خطرة فى كل عواصم العالم التى تنتشر فيها الجاليات الإسلامية.. وكذلك كان قيام المشروع الإيرانى ببعده الطائفى سببًا مباشرًا للصدام العنيف وتفجير ذرائع القتال لدى السلفية الجهادية والسلفية الشيعية فى مناطق التوتر وبؤر الصراع.

ويجب القول إنه لا يكفى أن نتبرأ من العنف لنكون فى عافية وخير، فالمرجعيات الدينية تبادر لاستنكار العمل العنيف دومًا، ولكنها تعود لتأسيسه على مقاعد الدرس، وعلى سبيل المثال فإن قتل المرتد وقتل تارك الصلاة وتحقير المشرك المختلف فى الدين كلها لا تزال فى مناهج التعليم الدينى، سواء فى السعودية أو فى الأزهر وفى دمشق.

■هناك دائمًا معضلة تواجه الفكر التجديدى للدين الإسلامى، تتمثل فى التمسك بآراء فقهية قديمة كانت استجابة لمعطيات تاريخية لم تعد موجودة.. هل ثمة حدود يفرضها الإسلام للاجتهاد الدينى؟ وما الحدود أيضًا التى ينبغى الوقوف عندها فى استدعاء النصوص الفقهية القديمة؟

-فى كتابى «نظام الحكم فى الإسلام»، المقرر فى جامعة أبوظبى، طالبت بإعادة الاعتبار للفقه الذى هو التفسير الواقعى المتطور للنص القابل للتطور والتغير بواقع تغير الزمان والمكان، ولا أقصد بالطبع الفقه القديم الذى أدى رسالته وانتهى دوره، بل أقصد الفقه المستمر القائم على أصول الفقهاء والمستعد للتطور مع الحياة وإيجاد الحلول لكل جديد، وحتى أكون واضحًا فأنا أقصد بالفقهاء هنا رجال الفقه والقانون من الحقوقيين الذين اطلعوا على النص الدينى، واطلعوا على تجارب الأمم والقانون الدولى، وهم رجال القانون الذين تنتدبهم الدولة الحديثة لكتابة القانون فى ضوء مصالح الأمة وحاجاتها وتجارب الأسرة الدولية، مع الاحترام للتاريخ الإسلامى كنص وفقه ورواية، ولا يهم فى هؤلاء الفقهاء كثرة الصوم والصلاة

والالتزام بظاهر النص الدينى، بل علمهم بحاجات الأمة واستنباط القوانين الحيوية التى تنفع الناس.

إن دساتير الدول الإسلامية فى ٥٣ دولة من أصل ٥٧ دولة إسلامية كُتِبت بلغة فقهية متطورة، وباتت تؤسس لإخاء الأديان وكرامة الإنسان واحترام النص الدينى، وكذلك قوانين المعاملات والدفاع والصحة والمرور والاقتصاد التى يكتبها خبراء متخصصون فى كل قانون، وهؤلاء تحديدًا هم من نسميهم الفقهاء، وكذلك كان اسمهم فى التاريخ الإسلامى عندما كانوا يكتبون القوانين والأسس الناظمة لبناء الدولة والمجتمع فى الدول الإسلامية عبر التاريخ.

ولا شك أن الفقهاء بهذا المعنى أبعد ما يكونون عن طبقة رجال الدين التى تقف عادة ضد كل تطور وتحديد وتحديث.

■ما السبيل إلى استعادة البُعد الروحى فى الدين الذى جرى تغييبه جراء خطاب دينى متطرف؟ وما الأهمية التى يُمثلها ذلك فى الوقت الراهن؟

-مع الأسف، لقد عاش المسلمون فى غمار حياة دينية بسيطة أسميها الإسلام الشعبى، قائمة على قيم التسامح والمحبة والغفران، قبل أن ينتشر التيار المتصلب فى العقيدة الذى لا يقبل أى خلاف، لقد كان الخلاف الفقهى فى المجتمعات الإسلامية كالخلاف الاعتقادى وكانت الناس تتقبل شعبيًا هذه الاختلافات، لقد كتبت مقالًا بعنوان الإسلام الشعبى، وفيه أستعرض مثلًا المسجد الأموى فى الشام الذى زاره كل فقهاء العالم الإسلامى وصلوا فيه، وذكروه بكل احترام، ولكن التيار السلفى اليوم بات يرى فى هذا المسجد عشرين بدعة منكرة توجب هدمه، وهذه الحقائق التى تقبلها المسلمون على مر القرون بكل محبة وتسامح باتت اليوم تعتبر من أشد مظاهر الشرك ولا أشك أبدًا أنه لو تمكن منها التيار السلفى فسيفعل بالمسجد كله ما فعله بمسجد النبى يونس فى الموصل دفاعًا عن التوحيد وقمعًا للشرك!

تجب إعادة الاعتبار للإسلام الصوفى السهل المتسامح الذى يقبل الاختلاف فى الفقه والعقيدة ويأذن بالتعايش والإخاء، وهذا هو الواقع الطبيعى للمجتمعات الإسلامية قبل أن يصل إليها خطاب التشدد.

■قوبِل كتابك «المرأة بين الشريعة والحياة» بهجوم عنيف بسبب انتهاجك منهجًا فقهيًا غير سائد.. لِم برأيك تواجه الكتابات التنويرية الخاصة بقضية المرأة على وجه التحديد بسيل من الهجوم مهما اختلف المنهج المُتبع؟

-لقد كان موقف رجال الدين من كتابى ضاريًا وشديدًا، وخسرت عملى كأستاذ جامعى عدة سنوات قبل أن أستأنفه فى بلد آخر، ومن المؤلم أن رجال الدين لا ينظرون للمرأة إلا ضمن إثنية صارمة، إما قديسة وإما عاهرة، ولديهم الاستعداد لوصم كل عمل إصلاحى فى شئون المرأة بأنه تآمر على الأسرة المسلمة واستجداء للغرب وخيانة للقيم الإسلامية فى العفاف.

ومع أن الكتاب لا يختار أدلته إلا من الأئمة المعتمدين عند فقهاء أهل السنة والجماعة وليس فيه أى رأى جديد، ولكنه اعتُبِر مشروع هرطقة وزندقة «كما صرح علنًا بذلك الشيخ البوطى»، وقد قُلت فى مقدمة الكتاب: إن جميع الآراء والفتاوى التى تقرأها فى هذا الكتاب معروفة فى كتب الفقه والرواية، ولها أدلتها من الكتاب والسنة، وأشرت إلى مواضعها فى مظانها، ويقتصر دورى على نشرها وتوظيفها للإجابة عن أسئلة محددة، ولكن رجال الدين قد حكموا عليها تاريخيًا بأنها قراءات شاذة وبات الاقتراب منها عدوانًا على الشريعة.

على كل حال لقد ظهر من الكتاب، حتى الآن، ست طبعات، وفى اعتقادى أنه قدم رؤية جديدة للإسهام فى تمكين المرأة، وصرحت بوجوب تحويل الحجاب من دائرة الفرض الواجب إلى دائرة المستحسن الجميل، ومنح المرأة الحرية والمسئولية فيما تختاره من لباس وزى وطالبت بوقف معركة الأزياء التى يعتبرها كثير من الإسلاميين والعلمانيين على السواء معركة مصيرية يربطون بها كل قيم النهضة والتخلف.

وأشعر بمرارة بواقع المرأة المسلمة التى فرض عليها الغياب عن الحياة بسبب أوهام غير واقعية، ومؤخرًا نشرت مواقع التواصل حفلات تكريم النساء فى إدلب وحلب وقد فرض النقاب على الجميع فرضًا صارمًا لا يوجد فيه أدنى استثناء، وكان أمرًا محزنًا أن بنات فى سن الورد أمرن بالنقاب الأسود الكامل، وهو واقع جديد حتى على هذه الأرياف المحافظة، فى حين أنها كانت فى عصر الرسالة شريكة وقيادية ولم يكن مجتمع النبوة نفسه يعرف هذا الفصل الصارم بين الذكور والإناث الذى يفرض على المرأة المسلمة فى الأرياف ويحول دون علمها وتحصيلها وسفرها ومشاركاتها الرياضية والفنية والعملية.

■من المنوط به تحرير العقل الإسلامى من تقديس الماضى وشخوصه وإدخال بذرة النسبية فى الرؤى الدينية؟ وإلى أى مدى يمثل ذلك ركيزة فى محاربة التوجهات الأحادية والتكفيرية؟

-إننا نتعامل مع الماضى بقداسة مفرطة، لقد أنكر القرآن الكريم على المسيحيين الغلو فى تعظيم عيسى بن مريم، وقال «يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم»، وقد وقعنا فى هذا الغلو نفسه، فى تقديس تراثنا كله، فالنص مقدس والصحابة مقدسون والأئمة مقدسون والرواية مقدسة وحروب الردة مقدسة والغزوات مقدسة ويختصر كثير من الإسلاميين رسالتهم كلها فى العودة إلى عصر السلف المقدس، وهى القرون الخيرية الثلاثة التى وردت بالنص.

ولكن هذه القرون الخيرية شهدت حروبًا ضارية بين المسلمين وانقسامات ونزاعات مريرة، وقدمت مواقف لا تتناسب إطلاقًا ومكان القدوة، وبات من الواجب ممارسة النقد البنّاء لما فيها، الأمر الذى يصنف دومًا بأنه التلاعب بالثوابت !

لقد طرحت المسألة بجرأة ووضوح؛ إن المستقبل هو المقدس، أما الماضى فقد حكم فيه الله تعالى بآية تكررت مرتين، وأنا أسميها آية السلف الصالح: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.«

■ثمة خطاب من الجانبين الدينى والعلمانى يرسخ لفكرة التعارض بين الدين والعلمانية فيما ترى أن الإسلام يزخر بأسس علمانية... ما الذى تقصده فى هذا الصدد؟

-الإسلام الذى تقدمه السلفية الجهادية لا يمكنه التصالح مع أى تيار علمانى، وكذلك العلمانية اللائكية التى تطالب بشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس لا يمكنها التعايش مع أى دين. ولكن العلمانية بما هى احترام الأديان وكرامة الإنسان وفصل الدين عن الدولة يمكنها أن تعمل بتشارك حيوى مع التيارات الدينية، وكذلك الإسلام الشعبى التاريخى، الذى عاشه الناس قبل ظهور التيارات السلفية المتشددة فى الاعتقاد فى ظلال المذاهب الأربعة والطرق الصوفية، يمكنه أن يعيش فى بيئة متعددة دون احتمالات صراع أو صدام عنيف.

لقد ناقشت هذه المسألة فى كتابى «العلمانى والفقيه»، وقلت إن المطلوب هو مراجعات عميقة فى المنهج، وكما نتحدث عن السلفية المتشددة، فإن العلمانية العربية خصوصًا باتت تقدم نماذج ساخطة غاضبة ترفض التعايش مع قيم الدين، وهذا فى الواقع تطرف لا يمكن أن يعود بأى خير على مجتمعاتنا الإسلامية، لقد قلت لهم يومًا أيها العلمانيون إنكم تتحولون بشكل متسارع لتكونوا أيضًا طائفة مغلقة فيها كل ما فى كهوف الطوائف من انغلاق وريبة وسوء ظن وعجز عن التعامل والتكامل.

مقال صحيفة الناس نيوز – محمد حبش 2021/4/19

محمد حبش

أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة أبو ظبي

لا أدري إن كان من الواقعي ان أبادر للكتابة عن كتابي بقلمي، أسابق الغبطة والزهو، فالكتاب الجديد لكاتبه كالمولود الجديد، وقد جرت العادة أن ينجز الكاتب كتاباً ويتولى النقاد التعريف به وتقويمه ونقده، ولكنني أجد نفسي مندفعاً للكتابة في كتابي الجديد، أسابق القلم خاصة انني أعتبره رسالتي التي كرست حياتي لها في إخاء الأديان وكرامة الإنسان وقد صدر أخيراً عن دار مؤمنون بلا حدود الواسعة الانتشار.

وأجد نفسي في الكتاب وقد استوفيت ما أريد قوله، فقد أرهقني تقديم المعاذير وإرضاء الناس، وليس في الدنيا فضيلة أولى من الصدق والوضوح، بعيداً عن زخارف المجاملات، فالعالم لم يعد يقبل خطاباً بوجهين ولسانين، وصار من الواجب حسم المسائل، وأن لا تأخذك في الحق لومة لائم.

ومع أن عنوان الإخاء الديني يحظى بالقبول النفسي لدى المؤمن عموماً ولكنه يصطدم، بلا شكّ، بنصوص قطعية في معظم الديانات، التي تعتبر الخلاص شأن الديانة الناجية وحدها، وأنّ مسؤولية أبناء الديانة هي دعوة الأديان الأخرى للتخلي عن معتقداتهم والدخول في الديانة الحق، بهدف بلوغ النعيم السماوي الخالد، الجنّة أو الفردوس أو النيرفانا أو الظهور الجديد، وفق ما تكرّسه الأديان من ثقافة وتقاليد.

ومع أنّ المجتمعات الإنسانية، ومنها معظم الدول الإسلامية، باتت تمارس قدراً كبيراً من الإخاء الديني، في إطار المعاملات والتواصل المجتمعي، ولكنّها ترتدّ في لحظة النصّ إلى الحوارات العقيمة التي تجعل من الآخر دوماً شيطاناً ضالاً مصيره الشقاء والخذلان، تضيق به رحمة الخالق، وينال أشدَّ العقاب على ضلاله وإصراره، وهذا مدلول النصوص الظاهرة في الأديان الإبراهيمية بشكل خاص، ومن المؤكد أنّ هذا التفكير موجود بشكل أقل في الديانات الفيدية (الهندوسية والبوذية) ولكنّه غير موجود في الأديان الفولوكلورية الصينية واليابانية.

ولا شك في أنّ المسألة لا تتوقف عند الجانب اللاهوتي، بل هو أيسر المسائل، فهي تتعداه باستمرار إلى الشقاق الاجتماعي، وتبادل الريب والاتهام، وتحقير الذات الإنسانية، فمن كان عند الخالق حقيراً مرذولاً لن يكون عند عباده في حال أفضل، وسيتنامى شعور الكراهية بشكل مطّرد من الإيديولوجيا إلى السوسيولوجيا، ومن ثم فإنّنا لن نكون أبداً أمام مجتمع مستقر أو متراحم، بل سنجد أنفسنا أمام ركام من البغضاء قد تزيّنه بعض الممارسات، ولكنّه يرتدّ في لحظة الاصطفاف إلى جحيم الكراهية ونار البغضاء.

لقد أمضى الإنسان قروناً طويلة ينظر بعين الريبة والحذر لأخيه الإنسان ويبادله اتهاماً بعد آخر، وانطبعت قصّة قابيل وهابيل مصدر إلهام للصراع الأبدي في الأرض، ووجدت الصراعات والحروب المدمّرة تبريراً أخلاقياً، وتمّ تكريس المجرمين أبطالاً ملهمين في التاريخ، ومن المؤلم أنّ هذا الصراع انعكس أيضاً على جدل أتباع الأديان الذي بدا تسخيفاً وتشكيكاً، ثم صار تحقيراً ولعناً وتكفيراً، ثم تحوّل إلى حروب ضارية، ووجدت هذه الحروب، باستمرار، تبريراً أخلاقياً على الرغم ممّا فيها من ممارسات التوحّش البهيمية، ووجدت للأسف من بات يطلق عليها الحروب المقدّسة، ويُكرّس أبطالها ومجرموها رموز التضحية والفداء، ويطالب بتكرار أعمالهم المجيدة، بل إنّ العقود الأخيرة قدّمت نماذج تطبيقيّة مرعبة أذهلت العالم كلّه.

وتسعى هذه الدراسة إلى معالجة هذه المسألة وفق قراءة جديدة للنصوص الدينيّة، والتوفيق بين الديني والاجتماعي والفلسفي، وتعمد إلى استقراء النصوص الدينية الأساسية التي تتبنّى فكرة ضلال الآخر وخسرانه، وتحاول بناء وعي جديد قائم على ثقافة احترام الآخر اعتقاداً وديانة ومذهباً، وتجتهد أن تلتمس أجمل ما في الأديان، وتتبنّى تشجيع الديانات على الإخاء والتراحم فيما بينها، ونزع أسباب التمييز والكراهية.

وهكذا فإنّ هذه الدراسة تحاول أن تقدّم للمكتبة العربية رؤية مختلفة لجدل الديانات، حيث تتخيّر من النبوّات والفلسفة والحكمة رائع المحاولات التي انطلقت من إيمان الإنسان بالإنسان، وترصد أرق ما امتلكه الإنسان من مشاعر وأعمق ما نظر إليه بعين القداسة، لبناء عالم جديد يتأسس على المحبّة والعرفان.

وتتأسس الفكرة على أنّ هناك مكاناً يظهر أجود ما في الإنسان، ويكشف عن الجانب النبيل من إنسانيته، وهو في الغالب في قدسه الروحي الذي تحمله الأديان، تأسيساً على الحكمة والإرادة والنبل في مقاصد الخالق العظيم، وإيماناً بالإنسان الذي مارس تقديس هذه القيم بوعيه الجمعي، ممّا يؤكد وجود الجانب النبيل في تلك القيم المستقرة جيلاً بعد جيل، وأمّة بعد أمّة.

ويقدم الكتاب مجموعة من المفاجآت غير المتوقعة، فمع أن السائد ان فكرة مساواة الأديان وإخائها مرفوضة بالمطلق لدى رجال الدين في معظم الأديان وخاصة الإسلام والمسيحية ولكن الدراسة تحشد سيلاً من النصوص الشرعية الأسياسية في القرآن والسنة تعزز بشكل مباشر منطق إخاء الأديان، وتستخدم الدراسة كذلك وسائل الفقه الإسلامي في الاستحسان والاستصلاح والعرف والذرائع للوصول إلى أفق مجيد من إخاء الإديان، كما يستعرض مئات المواقف الشجاعة لقادة ومفكرين مسلمين ومسيحيين على مستوى عال من المصداقية والقبول تحدثوا بوضوح وشجاعة عن إخاء الأديان، واستطاعوا أن يؤسسوا للمذهب الإنساني العابر للأديان والطوائف والأوطان، ونادوا بصراحة وشجاعة برفض احتار الخلاص واحتكار الله واحتكار الحقيقة.

ثم تطوف الدراسة بالأديان كلها فتستنطق في نصوصها التأسيسية نداءات مدهشة للمساواة بين الأديان ووجوب وقف جهود الكراهية والتبشير القائم على تزييف الآخر وتحقيره، وتصل إلى نخبة من القادة الدينيين في كل ديانة نادوا بإخلاص نحو إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

ثم تخصص الدراسة فصلاً خاصاً نستعرض فيه جهود فلاسفة عصر الأنوار لهدم فكرة احتكار الحقيقة التي قامت عليها إمبراطورية الكنيسة خلال العصور الوسطى، وتربط بين جهودهم النبيلة المعززة بالعلم والفلسفة وبين جهود الحكماء في كل دين نحو وقف احتكار الخلاص والجنة والله، وتؤسس لعيش مشترك قائم على احترام كل أشكال الإيمان.

لقد أردت أن أقول بوضوح: ليس إخاء الأديان محض طموح طائش يحمله أفراد مغامرون مسكونون بالمذهب الإنساني، بل إن التاريخ طافح بالرجال الكبار الذين أسسوا لهذا الوعي، وهو يصنفهم في التاريخ الإسلامي في خمسة أصناف: فلاسفة الإسلام وحكمائه، وأئمة الصوفية، وفقهاء الإخاء الإنساني، وفقهاء اللجان التشريعية في برلمانات الدول الإسلامية الذين نجحوا في 52 دولة منها على تضمين الدستور نفسه مواد المساواة والحرية والمواطنة، ونصوا بوضوح على بناء أعلى مستوى من إخاء الأديان بين الإنسان والإنسان.

أرجو أنني لم أكن ضيفاً ثقيلاً عليكم إذ حملتكم على قراءة كتابي الجديد، ولكنني أكتب ذلك وأنا على غاية اليقين بأننا نعيش آخر عصور التعصب الديني، وأن الإنسانية ماضية على إعلان دين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان، وأمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم، أو كما عبر الرسول الكريم نفسه: (لا تخيروني على الأنبياء) نبي بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء.

الفهرس

فصل تمهيدي

- أهمية الدراسة
- مصطلح إخاء الأديان
- الدراسات السابقة
- إشكالية البحث
- فرضيات الحل

الفصل الأول: الأصول الشرعية لإخاء الأديان

- الأصول الشرعية لإخاء الأديان
- مبدأ الفطرة
- مبدأ الفترة
- مبدأ العدل الإلهي
- مبدأ رسالة آدم
- مبدأ عيال الله
- الموقف الأخلاقي من إخاء الأديان
- أهم المواقف الفقهية المؤيدة لإخاء الأديان
- أهم المواقف الفقهية ضد إخاء الأديان

الفصل الثاني: إخاء الأديان في التراث الإسلامي

- إخاء الأديان في أعمال الفقهاء
- إخاء الأديان في أعمال الفلاسفة المسلمين
- إخاء الأديان في المدرسة العرفانية

الفصل الثالث: إخاء الأديان في تراث الأديان

- إخاء الأديان في أدبيات الأديان الابراهيمية
- إخاء الأديان في ديانات الفيدا
- إخاء الأديان في الأديان الأخرى

الفصل الرابع: إخاء الأديان في كلام الفلاسفة

- مختارات من مواقف الفلاسفة
- شعراء وأدباء عالميون يؤمنون برسول الله

خاتمة

أطلق الدكتور حبش مشروعاً لافتاً في الفكر الإسلامي تحت عنوان إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وهو عنوان دقيق يلامس عميق الأخوة الإنسانية دون أن يذهب إلى دعوات توحيد الأديان وإنتاج ديانات جديدة.

في كتابه هذا يقدم الدكتور حبش مراجعة للأصول المؤسِّسة لإخاء الأديان في مصادر التشريع الإسلامي، من النقل والعقل، ويتقدم بمنطق موضوعي لتأسيس إخاء الأديان عبر قواعد أصول الفقه المتينة التي هي في العمق قواعد العقل الفعال، حيث يطالبنا بتطبيق هذه القواعد بأنفسنا وليس عبر استنساخ تجارب الأولين.

ثم يستعرض التاريخ الإسلامي فيستخرج عشرات الحكماء والفلاسفة والفقهاء ورموز الإشراق الإسلامي الذين سبقوا للتأصيل للإخاء الإنساني، وتجاوزوا عقدة تكفير الأديان التي كانت ولا تزال سبباً جوهرياً في ثقافة الكراهية.

ثم يتحول إلى رصد ما قدمته الأديان الأخرى في العالم من الاستجابة لإخاء الأديان، وينقِّب في التراث العميق للأديان فيشير إلى أهم المحاولات الجريئة التي اعترفت بإيمان الآخرين، وقاومت احتكار الله واحتكار الحقيقة، ودعت إلى البناء على المشترك الإنساني.

ثم يتحول إلى التجربة الأوربية في عصر الأنوار التي واجهت عقائد الكنيسة الصارمة في احتكار الخلاص، ويرصد النجاحات التي حققها التيار الإنساني في المسيحية، ثم يبني بعناية جسور الحوار والمحبة عبر رواية أروع ما كتبه حكماء أوربا في محبة الإسلام ورسوله والأمة الإسلامية.

ويؤكد المؤلف أنه اختار إخاء الأديان تحديداً لأنه أشد منعطفات الوفاق الإنساني صعوبة وتحدياً، ويؤكد أن الهدف هو الإنسان لا الأديان، وينادي بشعار دين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان، وأمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم.

إنها محاولة لبناء مذهب إنساني عابر للثقافات والأوطان، قائم على إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

محمد حبش: باحث سوري متخصص في الشريعة ودراسات الأديان

ISBN 978-9953-64-087-7
9 789953 640877

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للنشر والتوزيع